المكتبة الأندلسية
٢٤

البيان المغرب

في أخبار الأندلس والمغرب

لابن عذاري المراكشي

الجزء الرابع

تحقيق ومراجعة
الدكتور إحسان عباس

دار الثقافة
بيروت — لبنان

الطبعة الثالثة
١٩٨٣

تصدير

هذه قطعة من كتاب ابن عذاري «البيان المغرب» تختص بعصر المرابطين في المغرب والأندلس ، وهي قطعة جليلة الشأن في القاء أضواء على تلك الفترة التي فقدت اكثر مصادرها الأصيلة ، وقد كانت أوراقاً عثر عليها الأستاذ ليفي بروفنسال ، ونشر منها الجزء الخاص باستيلاء السيد الكنبيطور على بلنسية ، ثم قام الأستاذ هويسي ميراندا بنشر سائرها في مجلة « Hesperes » عام ١٩٦٠ .

ولما رأت دار الثقافة أن تعدّ كتاب ابن عذاري للنشر وتيسره للقارىء المشرقيّ في صورته المحققة ، عهدت اليّ بالقاء نظرة على هذا الجزء من البيان المغرب ، فصوّبت ما رأيته في حاجة الى التصويب ، وعلقت في حواشيه تعليقات لازمة موجزة ، ثم ذيلته بملحقات تسدّ بعض الخلل الواقع في هذه الأوراق وخاصة في أخبار يوسف بن تاشفين بين سنتي ٤٧٩ – ٤٩٥ ، راجياً بذلك كله تقديم العون للقراء والباحثين .

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل .

احسان عباس

[ابتداء أمر اللمتونيين]

[والموجب لخروجهم عن الصحراء إلى وطن المغرب أن أحد بني جدالة [1] ، ويعرف بيحيى بن ابراهيم من جدالة ، كان قد توجه لأداء فريضة الحج واجتاز في ايابه [2] على مدينة القيروان وذلك سنة ٤٤٠ هـ ، فحضر بها مجلس الفقيه المدرس أبي عمران الفاسي [3] ، فسأله عن قبيلته ووطنه ، فذكر أنه من الصحراء من قبيلة جدالة ، إحدى قبائل صنهاجة ، فقال له الفقيه: ما مذهبكم ؟ فقال له : ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب، لأننا في الصحراء منقطعين لا يصل الينا إلا بعض التجار الجهال ، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم . . . .] [4]

---

(١) جدالة (والجيم مصرية النطق) احدى قبائل صنهاجة ، واخوتهم لمتونة ، وهم صحراويون وهم بطون ضخمة وبلادهم مما يلي أرض السودان (مفاخر البربر : ٥٢) .

(٢) في مطبوعة الحلل : أيامه،وهو خطأ ؛ وعند البكري : ولقي في صدره، يعني في ايابه.

(٣) اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي التقى فيها يحيى بن ابراهيم بالفقيه أبي عمران ، بين ٤٤٠ . ٤٤٥، ٤٤٨ ، ٤٢٧، ٤٢٩ (النويري ٢٢ : ١٧٢ وصبح الاعشى ٥ : ١٨٩، وابن الأثير ٩ ، ٢٥٨ والروض : ٧٦)وتنص المصادر على ان ابا عمران توفي سنة ٤٣٠ فلا بد ان يكون هذا اللقاء قد تم حسب رواية صاحب الروض (أي ٤٢٧ او ٤٢٩) .

(٤) هذا النص من الحلل له ما يقابله في المصادر الاخرى مع اختلاف في العبارة وتقارب في الدلالة (انظر الروض : ٨٠ والبكري : ١٦٥) .

... ويشتهرون ، وفينا اقوام على تعليم العلوم يحرصون ، وعلى التفقه في الدين من الله يرغبون ، [فعسى] يا سيدنا تنظر في من يتوجه معي الى بلادنا ليعلمنا ديننا » فقال له الفقيه: «سوف اجتهد لك في ذلك ان شاء الله تعالى»؛ فعرض الفقيه الامر على الطلبة هنالك ، فلم يجد احداً يوافقه على ذلك ، لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى ، فدل الفقيه على رجل من فقهاء الغرب الاقصى اسمه واجاج [1] ، فاعطاه كتاباً يوصله اليه يؤكد في الاجتهاد في ذلك عليه . فلما وصل يحيى بن ابراهيم الى اقصى المغرب وجده في موضع يقال له « ملكوس » [2] واجتمع معه فيه ، واعطاه كتاب الفقيه ابي عمران ، فرحب به واكرمه ، وكلمه يحيى بما اراد ان يكلمه ، واعلمه بوصية الفقيه ابي عمران اليه ، وتوكيده عليه ، فاختار له شخصاً يقال له عبد الله بن ياسين ، فسار معه الى قبيلة جدالة ، فاجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصاً ما بين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم ويفقههم في دينهم ، فانقادوا له انقياداً عظيماً ووالوه [3] في ابتداء الامر تكريماً ، واقاموا معه على ذلك مدة كبيرة ، واجتمع عليه منهم اعداد كثيرة ، الى ان امر عبد الله المذكور لقبائل جدالة بغزو قبايل لمتونة ، فحاربهم جدالة حتى غلبوهم ودخلوا في دعوة عبد الله بن ياسين ، وغزوا معهم سائر قبائل الصحراء وحاربوهم ، فقوي امر جدالة وظهورهم الى ان مات يحيى بن ابراهيم .

وبقي فيهم عبد الله بن ياسين يمتثلون كل ما به يأمرهم منقادين لامره ونهيه ، الى ان نقض عليه شخص منهم اسمه الجوهر بن سحيم [4] شيئاً من احكامه

---

(١) الحلل : واكاك ؛ وفي نسخة بوجاج (أي يعرف بوجاج) فالاسم واكاك أو وجاج بالجيم المصرية واسم أبيه زلوان (كما في الحلل والروض) وزلوى (في البكري) .

(٢) كذا هو عند البكري أيضاً ، وفي الروض : « نفيس » .

(٣) اقرأ أيضاً : وأولوه .

(٤) سماه البكري : الجوهر بن سكتم ، وذكر أن اثنين من قومه شايعاه يقال لأحدهما إيار وللآخر اينتكوا .

وجـــد فيها تناقضاً ، فتوافق مع بعض رجال من كبرائهم فعزلوه من الرأي والمشورة ، وقطعوا منه مالهم ، وانتهبوا داره وهدموها ، واخذوا مـا كان فيها ، وخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً منهم .

وكان امير لمتونة يومئذ يحيى بن عمر بن بولنكاين [1] اللمتوني ، فرحل اليه عبد الله المذكور فتلقاه يحيى بن عمر بأحسن قبول من اقباله ، واخذ معه في اموره وأحواله ، فتوجه عبد الله بن ياسين الى شيخه واجاج الذي دخل يحيى ابن ابراهيم الجدالى عليه ، وقيل انه كتب ولم يتوجه بنفسه اليه ، فأعلمه بما جرى في جدالة ، وبيّنَ له امره معهم وحاله ، فشقّ على الشيخ واجـــاج المذكور ما أعلمه من ذلك فكتب الى بعض أشياخ جدالة يعاتبهم على ما صدر لعبد الله بن ياسين منهم وما بلغه من فعل المشغبين عليه وهو مقيم بينهم وأخذ في ذلك أخذاً كليا عليهم ، وعاتب عتاباً شافياً اليهم ، لكونهم كانوا قـــد انقادوا اليه، ثم انتقدوا ما شيعه عدوه عليه؛ فلما وصل جواب الشيخ واجاج من أشياخ الجداليين المذكورين ، مستعذرين له على تقصيرهم في حقّ عبد الله بن ياسين ، أمره بالرجوع الى تلك القبـايل الصحراوية وكتب لاشياخهم يعلمهم أنّ من خالفه قد خالف الجماعة .

بعض اخبار عبدالله بن ياسين مع لمتونة في ابتداء أمرهم

وذلك انه لمـا استقر عبد الله بن ياسين عند لمتونة انقادوا له واطاعوه ، واحتـال على الذين شاغبوا عليه في جدالة فقتلهم ، وأمر بقتل من استوجب القتـل عندهم ، فأجابته بعض القبائل الصحراوية ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به ، وكان اشدهم انقياداً له امير لمتونة يحيى بن عمر ، فكان يخرج معه

(١) البـكري : يحيى بن عمر بن تلاجاجـين . وفي صبح الأعشى : يحيى بن عمر بن واركوت .

مع قبائل لمتونة لمحاربة بعض القبائل الذين لم يخرجوا تحت طاعته ، إلى ان نهضوا الى قبيلة لمطة فسألوهم ثلث اموالهم ليطيب لهم الثلثان الباقيان – كذا سنّ لهم عبد الله بن ياسين في الاموال المختلطة – فأجابوه الى ذلك ودخلوا معهم في دعوته مدة كبيرة ، وتقدم يحيى بن عمر اللمتوني على قبيلة مسوفة وغيرها .

وكان عبدالله بن ياسين قد دخل بلاد الاندلس في دولة ملوك الطوايف فأقام بها سبعة اعوام ، وحصل فيها على علوم كثيرة ، ثم رجع الى المغرب الاقصى فمر بتامسنا فوجد فيها أمماً لا تحصى اكثرهم تحت أمراء البرغواطة ، وكان عسكر أمراء برغواطة اكثر من ثلاثة آلاف ، وانضاف اليهم من سائر القبائل ، ما بين فارس وراجل ، ازيد من عشرين ألفاً من جراوة وزغاوة ومطغرة والبرانس وركونة وغيرها .

وكان أهل المغرب يتولون امور بلادهم ، وامراؤهم يتولون الامارة بينهم، الى ان تغلب كلّ شخص منهم على موضعه ، كما فعل ملوك طوايف الاندلس . فمرّ عبدالله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد مُنْصَرَفه من الأندلس فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون الى طاعة امام . فكان من عبدالله بن ياسين بعض الالهام ان قال لبعضهم : « الا تعرفون الله ربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وازكى السلام » فقالوا له « نعم عرفنا الله ربنا ومحمداً نبينا – صلى الله عليه وسلم – » فقال لهم عبد الله : « فما لكم بدلتم وغيرتم ؟ هلا قدمتم عليكم اماماً يحكم بينكم بشريعة الاسلام وبسنة النبي عليه السلام ؟ » فقال له بعض أشياخ المصامدة : « لا يرضى احد منا ينقاد الى حكم احد من غير قبيله » فتركهم ورحل عنهم الى بلاد جزولة فكان من امره مع يحيى بن ابراهيم وجدالة ما تقدم ذكره . ثم رحل من جدالة الى لمتونة فانقادوا له وكان اميرهم يحيى بن عمر أشد انقياداً له كما تقدم ذكره . قال بعض المؤرخين في « المجموع المفترق » وفي كتب غير ذلك : ان بعد الاربعين والاربعماية قامت

قبائل في الصحراء من صنهاجة يعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة وجدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه قبيل غيرهم ، وهذه الثلاثة قبائل في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق وردّ المظالم وقطع المغارم وهم متمسكون بالسنة .

وكان الذي شرع فيهم ذلك ، ودلهم على أرشد المسالك ، عبد الله بن ياسين واول ما اخذت لمتونة من البلاد بلاد درعة . قال ابو عبيد [1] — رحمه الله — وكان للمتونة في قتالهم في ابتـــداء امرهم شدة وجلد وليس كذلك لغيرهم ؛ وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف وكان قتالهم على النجب اكثر من الخيل واكثرهم مترجلون على اقدامهم صفوفاً صفاً بعد صف ، يكون بأيدى رجال الصف الاول القنا الطوال ، وكانت لهم راية يقدمونها امام الصفوف فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وان أمالها الى الارض جلسوا فكانوا في ذلك اثبت من الهضاب فمن فر امامهم سلبوه ولم يقتلوه ... ويقتلون الكلاب [2] ولا يستصحبون شيئاً منهـــا في سكناتهم ولا في حركاتهم ؛ وكان يحيى بن عمر يمتثـل امر عبد الله بن ياسين امتثالاً عظيماً ، ولقد اخبر جماعة عنهما ان عبد الله قال له في بعض الحروب: « ايها الامير إن عليك ادباً » فقال له يحيى « وما الذي أوجبه علي » ؟فقال له عبد الله : « لا اخبرك حتى آخذ حق الله بك » فحكمه في نفسه وضربه بالسوط ضربات في رجله ثم قال له « ان الامير لا يدخل القتال بنفسه لان حياته حياة عسكره وهلاكه هو هلاكهم [3] » .

---

(١) هو البكري : ١٦٦ وانظر الحلل : ١١ مع اختلاف في ترتيب الجمل ، وما هنا أقرب الى نص البكري .

(٢) في البكري : ومن فرّ أمامهم لم يتبعوه ؛ وهم يقتلون ... الخ .

(٣) هنا توقف النقل عن البكري ، وانظر الروض : ٢٩ .

بعض اخبار الامير أبي زكرياء يحيى بن عمر امير اللمتونيين وسبب تسميتهم بالمرابطين وخروجهم من الصحراء الى سجلماسة ودرعة

كان هذا ابو زكرياء منقاداً في جميع اموره لامامة عبدالله بن ياسين فقدمه بعسكره وعبدالله في مقدمته وهو في الحقيقة الامير الذي يأمر وينهى . وكان يلي لمتونة جبل فيه قبايل من البربر على غير دين الاسلام ، فدعاهم عبدالله بن ياسين الى الدين فامتنعوا له ، فأمر يحيى بن عمر بغزوهم فغزاهم لمتونة ، وسبوهم وقسموا سبيهم بينهم وأخذ اميرهم خمسهم وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم ، وكان قد فقد في ذلك الوقت من عسكرهم اكثر من نصف عددهم ، وكان امامهم عبد الله بن ياسين يصبرهم الى ان ظهروا باعدائهم ، فسماهم عبد الله بالمرابطين ، وسمى اميرهم يحيى بن عمر « أمير الحق » : ووقفت على كتاب قديم ... لما بعث الفقيه ابو محمد عبد الله بن ياسين لاهل هذا الجبل الموالي لبلاد لمتونة يدعوهم للدخول في الاسلام وشريعة محمد – عليه السلام - وان يؤدوا ما فرض الله عليهم من الزكاة فاستنعوا وقتلوا رسله فأمر لمتونة بغزوهم فخرج اليهم وصمد عليهم الجبل وقاتلهم ثلاثة ايام قتالاً ... مات من لمتونة فيه عدد كثير ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ؛ فلما كان في اليوم الرابع جمع عبد الله بن ياسين اصحابه لمتونة وقال لهم « ازا احتسبنا انفسنا في حق الله وسنة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم – واراكم قد أعياكم حرب هؤلاء المشركين ولم يأمرنا الله ان نتركهم اذ ... فاستعينوا بالله ربكم ينصركم عليهم ، فخرجت لمتونة في اليوم الرابع وكان...اسبغ.. وعزم على الحرب فحمي الوطيس بين الفريقين ، واشتدت الحرب الى ان انهزم اعداؤهم وقتلوهم قتلا ذريعاً وسلبوا اموالهم وسبوا نساءهم وابناءهم ..

وعادوا الى بلادهم فأمرهم امامهم عبد الله بن ياسين باعطاء الخمس لاميرهم يحيى بن عمر ... واخذوه .

ولما ظهر لعبد الله بن ياسين استقامة لمتونة وجِدُّهم واجتهادهم ، أراد ان يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب ، فقال لهم : « انكم قد غزوتم ونصرتم دين محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد فتحتم ما كان امامكم وستفتحون – ان شاء الله – ما وراءكم»فامرهم بالخروج من الصحراء إلىسجلماسة ودرعة واهلها يومئذ تحت طاعة زناتة المغراويين واميرهم مسعود بن وانودين [١] وذلك بعد ما خاطبوهم فلم يجيبوهم الى ما طلبوا منهم فغزوهم في جيش كثيف واكثرهم على النجب [٢] ركباناً ومنهم رجالاً وفرساناً فقاتلهم لمتونة الى ان غلبوهم فطلبوا العفو منهم وادخلوهم سجلماسة فقيل انهم قتلوا مسعود ابن وانودين اميرهم وقيل بل فرّ امامهم واقام بها الامير يحيى بن عمر مدة اشهر مع اخوانه اللمتونيين .

ثم تخلف جماعة منهم ورحل منها مع اخوانه الى الصحراء لاجل جدالة اعدائهم ، وبعد ذلك زحفت زناته المغراويون على سجلماسة فدخلوها وقتلوا من كان بها من اللمتونيين في المسجد الجامع ، فقيل ان ذلك كان في السنة ست واربعين واربعمائة وقيل في سنة ثمان واربعين .

ثم بعد ذلك ندم اهل سجلماسة على ما فعل مع لمتونة وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين يذكرون ان زناتة المغراويين [زحفوا اليهم] [٣] وانهم هم الذين فعلوا ما فعلوا وقتلوا من قتلوا وطلبوا الوصول اليهم والقدوم ... عليهم ليأخذوا ثأرهم منهم فندب عبد الله بن ياسين اللمتونيين وغيرهم [إلى غزو زناتة ثانية] [٣] فخالفه قبايل جدالة وذهبوا الى الساحل، فأمر عبد الله

---

(١) في الحلل : مسعود بن وانود بن خزرون ؛ وما هنا موافق لما عند البكري .
(٢) البكري : في جيش عدته ثلاثون الف جمل سرج .
(٣) التتمة من البكري .

ابن ياسين امير لمتونة يحيى ان يتحصن في جبلهم وهو جبل غزير الماء والكلا قال ابو عبيد – رحمه الله – [1] : كان في طوله مسيرة ستة ايام وفي عرضه مسيرة يوم واحد وفيه حصن يسمى ازكي [2] حوله نحو من عشرين الف نخلة فصار يحيى بن عمر في ذلك الحصن ، قيل بسبب مرض اصابه ، وقيل غير ذلك .

وكان ابو بكر بن عمر قد تركه اخوه يحيى بن عمر اميراً على بلاد درعة فاجتمع لعبد الله بن ياسين جيش كثيف من لمتونة ومسوفة ولمطة ومزجة [3] وصار بهم الى درعة . ثم بعد ذلك رجعت جيوش جدالة الى يحيى بن عمر : قيل انهم كانوا نحو ثلاثين الفـــاً وأقل منهم ركبان على النجب وبعضهم على الخيل وذلك في سنة ثمان واربعين وقيل سنة تسع ؛ وكان [التقاؤهم] مع لمتونة في موضع معروف عندهم : قتل فيه يحيى بن عمر وقتل فيه بشر كثير [4] وهم يذكرون بزعمهم انهم يسمعون في ذلك الموضع اصوات المؤذنين عند اوقات الصلوات والآن يحترمونه ولا يدخله احد منهم .

ذكر دولة الامير ابي بكر بن عمر اللمتوني ـ رحمه الله ـ

وذلك انه لما بلغ الخبر بوفاة اخيه ابي زكرياء ببلاد الصحراء قدمه امامه عبدالله بن ياسين في درعه وتوجه الى سجلماسة واخذ له البيعة من اهلها ؛ ثم وصلها الامير ابو بكر فبويع بهـــا في اوائل شهر محرم مفتتح عام خمسين واربعمائة ، وقيل غير ذلك ، وبايعه فيها بعض الزناتيين على يدي عبد الله بن

(١) المغرب : ١٦٧ .
(٢) البكري : اركى .
(٣) البكري : وترجة ، وفي الحلل : وهزرجة .
(٤) أوجز صاحب الروض في الخبر عن مقتل يحيى فقال : وتوفي الأمير أبو زكريا يحيى بن عمر في جهاد كان له ببلاد السودان .

ياسين وخرج الامير ابو بكر من سجلماسة بعسكره في الثالث عشر الى درعة ليأخذ منهم ما اوجب له عليهم من الزكاة والفطرة؛ وكان بدرعة قوم من زناتة فامتنعوا له فقاتلهم الامير ابو بكر وهزمهم وغنم ابلهم ومواشيهم، وولى الامير ابو بكر على بلاد درعة رجلاً من خيار لمتونة وترك معه جمعاً كبيراً وعاد الى سجلماسة ؛ وانصرف ابو محمد عبدالله بن ياسين عنه الى بلاد المصامدة وغيرها حين تذكر ما عاينه من تلك القبائل واحوالهم فخرج من سجلماسة قاصداً الى اغمات فاجتمع بوريكة وهيلانة وهزميرة وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا فوجدهم على ما كان تركهم من الفتنة الفها (؟) فقال لهم : « ألا تعرفون انه من مات منكم في هـــذه الحروب الجاهلية فانه من اهل النار ؟ فوعظهم وقال لهم: « اتقوا الله وارتدعوا عما انتم عليه من فتنتكم وقدموا على انفسكم من يؤلفكم » فقالوا له : « ما هو فينا ... ولا في قبايلنا الا كل قبيلة منا ترى ان يكون الامير منها » فقال لهم: « ان انتم سمعتم مني ادلكم على رأي صالح يصلح الله به احوالكم : هذا امير لمتونة الصحراء اهل الزهـد والورع – وقـــد كانوا سمعوا به – وما اصلح الله من البلاد على يديه » فأنعموا له [وأخذ] عليهم العهود والمواثيق بذلك .

ثم رحل عنهم ورجع الى سجلماسة فتلقاه الأمير ابو بكر بن عمر على مسيرة يوم منها وسر بقدومه عليه ، فبشره عبدالله بن ياسين بما أفاء الله له على يديه، فشكره الامير ابو بكر على ذلك ودعا له بامتداد عمره فقال له ابو محمـــد عبدالله : « تأهب للحركة اليهم وقدومك المبارك اليهم » فأخذ في غد ذلك اليوم في حركته وولّى على سجلماسة احـد اخوانه مع جمعٍ وافر من لمتونة وخرج من سجلماسة في السابع عشر لربيع الآخر من السنة خمسين المذكورة وذلك في عسكر فيه اربع مابة فارس وثمان مابة راكب على النجب والراجل ، وكان وصولهم الى اغمات وريكة في الثاني لجمادى الاولى من السنة فتلقتهم بعض اشياخ قبائل المصامدة على مرحلتين من اغمات ، فاحتل الامير ابو بكر مدينة اغمـــات واستوكن مع امامه عبدالله بن ياسين فبايعه بعض القبائل بها .

ثم وفدت عليه وفودها فبايعوه ، واقام باغمات مع امامه مدة من ستة اشهر ؛ فلما كان اول شهر ذي قعدة من العام المؤرخ انصرف عنه امامه ابو محمد الى بلاد تامسنا فقتله برغواطة في اوائل سنة احدى وخمسين واربع مائة وقال بعض المؤرخين لدولتهم انه توجه في بلاد السوس ليصلح بين اخوته جدولة في فتنة فأصابه مرض فقضى نحبه ووصل نعيه الى اغمات ، واما ما صح عنه فأنه قتله برغواطة كما تقدم ذكره [1] . ولم يقتل عبدالله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة واعمالها واغمات وبلاد السوس وغيرها .

ومما يذكر [2] من احوال عبدالله بن ياسين انه سافر مع قوم كانوا معه فعطش جميعهم فشكوا ذلك اليه فقال : « عسى الله ان يجعل لنا من امرنا فرجاً ومخرجاً » . ثم سار بهم ساعة وقال « احفروا » فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر ، فعدوا ذلك كرامة له ، فشربوا جميعاً وسقوا دوابهم وانصرفوا . وكانت لمتونة لا تقدم احداً منهم للصلاة الا من صلى خلف عبدالله بن ياسين ، وقيل: كان عبدالله نكاحاً للنساء يتزوج في الشهر عدداً منهن ثم يطلقهن، فكان لا يسمع بامرأةٍ حسناء الا خطبها ولا يجاوز بصداقهن اربعة مثاقيل .

واما ما شذ فيه عبدالله من الاحكام [3] فأخذه الثلث من الاموال [المختلطة] وزعم أنها بذلك تطيب ، وان الرجل اذا دخل في دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: « قد اذنبت ذنوباً كثيرة فيجب ان يقام عليك حدودها » فيضربوه حد الزنا وحد الافتراء ، وان علموا انه قتل قتلوه سواء اتاهم تايباً طايعاً او غلبوا عليه . ومن يتخلف من مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة ضرب خمسة اسواط فكان اكثرهم

---

(١) أسهب صاحب روض القرطاس في وصف حروبه مع برغواطة ومقتله في احدى المعارك متأثراً بجراحه يوم الاحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٥٤١ ، ودفن بموضع يقال له كريفلت .

(٢) انظر البكري : ١٦٨ والروض : ٩٦ .

(٣) عقد البكري : ١٦٩ فصلا بهذا العنوان .

يصلون بغير وضوء اذا حان الوقت واعجلهم الأمر من اجل الضرب . ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين ان رجلاً اختصم اليه مع تاجر غريب فقال له التاجر في جوابه : حاشا لله ان يكون ذلك – فأمر بضربه ؛ ولما مات ابن ياسين وقتله برغواطة كان الامير ابو بكر بن عمر قد تولى امر صنهاجة وغيرها وطاعت له قبائل المصامدة بأسرها ، فقام معهم لقتال برغواطة حتى أخذ الثار منهم . وفي ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه .

ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية

قال ذوو العلم بأخبارهم ان الجد الذي ينتهي اليه نسب جميعهم هو منصور والجد الذي يفترق منه افخاذهم ترجوت بن ورتاسن بن منصور بن مصالة بن امية بن وانمالي الصنهاجي[1] ثم اللمتوني. وكانت لترجوت ثلاثة بنين محمد وحميد وابراهيم فتفرقت منهم بطون كثيرة ، وكان القائم بالملك في الصحراء بعد ابيه ابراهيم وهو جد يحيى بن عمر الامير المتقدم ذكره ، وكان يقال له امير الحق وهو يحيى بن عمر بن ابراهيم بن ترجوت ، وكان لأمير الحق يحيى المذكور من الولد اربعة بل ثلاثة محمد وعلي وعيسى وكان لأم محمد نبأ ظريف يأتي ذكره في موضعه ان شاء الله تعالى – واستصحب يحيى بن عمر الامر بقية عمره ؛فلما قضى نحبه ولي الامر بعده أخوه ابو بكر بن عمر وكان يرى في منامه بقرتين يخيّر فيهما فيضع [يده على] احداهما فيقال له « هذا الذي اخذت هو الملك والذي تركت هو الولد». وكان له ابنان ابراهيم ويحيى ،فأما يحيى فيعرف بابن عايشة وهي بنت ياران بن تايغشت اخت اسحاق بن ياران ، وأما ابراهيم فلم تعرف امه وكان اسود الجلدة وهو ابراهيم بن الامير ابي بكر بن عمر . واما

---

(١) الحلل : تورقيت بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن أنخالي الصنهاجي .

فخذ يوسف ابن تاشفين ومن ذكر معهم فهم بنو ابراهيم فهو يوسف بن تاشفين ابن ابراهيم بن تورجوت .

وفي سنة ستين واربع مـــائة استقامت الامور للامير ابي بكر بن عمر وطاعت له البلاد ووجه عماله اليها ، وكان مستوطناً بمدينة اغمات ، وكانت بهـــا امرأة جميلة تعرف بزينب النفزاوية قد شاع ذكرها وامرها في قبايل المصامدة وغيرهـــا ، فكان يخطبها اشياخهم وامراؤهم فتمتنع لهم وتقول : « لا يتزوجني الا من يحكم المغرب كله » فكانوا يرمونها بالحمق ، وكان لها اخبار مستطرفة غريبـــة كمثل اخبار الكهنة ، فبعض يقولون ان الجن يكلمها ، وبعض يقولون هي ساحرة ، وبعض يقولون كاهنة . فلما بجمالها الامير ابو بكر ابن عمر فخطبهـا وتزوجها فوعدته بمال كبير تخرجه له ، ثم ادخلته في دار تحت الارض معصب العينين ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتاً فيهـــا ذهب كثير وفضة وجواهر ويواقيت ، فعجب من ذلك ابو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة ، فقالت له زوجه زينب : هذا كله مالك ومتاعك اعطاك الله اياه على يدي فصرفته الآن عليك ، وكان رؤيته له بضوء الشمع ، ثم اخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما ادخلته فيه فلا علم من اين دخل ولا من اين خرج ؛ وكان دخوله معرساً [1] بزينب المذكورة في شهر ذي القعدة من عام ستين واربع مايه . وكانت هذه المرأة موسومة بالجمال والمال وكان لها محاسن وخصال محمودة وروية مستطرفة فقيل — والله اعلم — ان الجنّ كانت تخدمها وقيل غير ذلك كما تقدم .

وفي سنة احدى وستين وأربعمايـــة بعث الامير ابو بكر بن عمر عسكراً كبيراً قدم عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين وبعث معه جملة كبيرة من اشيـــاخ لمتونـــة ومن قبائل البربر المصامدة وغيرهم وذلك برسم قتال رؤساء القبايل القاطنين بأرض المغرب وكان اكبرهم شوكة بني يفران الزناتيين المستوطنين في

---

(١) في المطبوعة : معرفاً .

قلعة مهدي ابن تبالا [1] . فحاربهم يوسف بن تاشفين بمن كان معه من القبايل التي دخلت في طاعة الامير ابي بكر بن عمر وفر معنصر بن حماد الى مدينة فاس وقتل من اتهم بالقيام بأمر لمتونة وقتل يوسف بن تاشفين اناساً من سدراتة.

وفي هذه السنة [2] ضاق الجمع بمدينة اغمات وريكة عن الخلق فيها فشكا اشياخ وريكة وهيلانة بذلك الى الامير ابي بكر بن عمر مرة بعد اخرى الى ان قال لهم : « عينوا لنا موضعاً أبني فيه مدينة — ان شاء الله تعالى » — وكان سكناه مع اخوانه في الاخبية ... حتى ابتنى بزوجه زينب النفزاوية في هذا العام فزاد الخلق باغمات من اجل ... هيلانة وهزميرة على ان يعينوا موضعاً حيث يكون بناء المدينة ، فوقع التنازع بين المذكورين في ذلك ، وطلب كل واحد ان يكون بناء المدينة في بلادهم لينسب بناؤها اليهم وذلك لأجل ما تقدم بينهما من الفتنة ومداولة الامارة الى ان اجتمعت اشياخ قبايل المصامدة وغيرهم فوقع تدبيرهم ان يكون موضع تلك المدينة بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك اميرهم ابا بكر بن عمر وقالوا له : «قد نظرنا لك موضع صحراء لا انيس به الا الغزلان والنعام ولا تنبت الا السدر والحنظل» . ثم كان اراد بعضهم ان تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهم من ذلك وقال : « نحن من اهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكنى على الوادي » فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها ، ودكالة فدانها ، وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها ، فركب الامير ابو بكر في عسكره مع اشياخ القبايل فمشوا معه الى فحص مراكش وهو خلاء لا انيس به فقالوا له : « ابن هنا مدينة تكون متوسطة بين هيلانة وهزميرة » .

وفي سنة اثنتين وستين واربعمائة في الثالث والعشرين لرجب ابتدىء بأساس

---

(١) سمّاها ابن خلدون (٦ : ١٨٤) قلعة فازاز وسمّى صاحبها مهدي بن توالى .

(٢) انظر الحلل : ٥ .

مراكش وذلك قصر الحجر ، وشرع الناس في بناء الدور دون سور ؛ وفي ذلك اليوم بعينه كان ركوب الامير ابي بكر بن عمر واخوته وجميع محلته مع اشياخ المصامدة والفعلة من البنائين وغيرهم ، فابتدأ العمل في الاساس بمشاركة الأشياخ وحسب عونهم ، فأعانوا على البناء بالمال والرجال ، فقام سور قصر الحجر في نحو ثلاثة اشهر على نحو ما ذكره ذوو المعرفة والاخبار ، واشتغل الناس فيها ببناء الديار كل واحد على قدر جهده واستطاعته . فذكروا ان اول دار بنيت بمراكش من ديار لمتونة دار تورزجين بن الحسن الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها وهي الان ظاهرة على المقر بالموضع المذكور الى وقتنا هـذا سنة ست وسبعماية ؛ وذكروا ان اللمتونيين حين طلبوا موضعاً صحراء يبنون فيه مدينتهم ليبعدوا من مواضع الوادي والفياض على أنفسهم ومواشيهم لعادتهم في بلادهم فوقع بحثهم وجدهم واجتهادهم على موضع مدينة مراكش والله اعلم بذلك .

وفي سنة ثلاث وستين واربعماية كان الامير ابو بكر بن عمر قاعداً على السور والفعلة امامه يعملون في السور وفي غيره الى ان وقف عليه رجل راكب على فرس أشعث الرأس فسلم عليه وقال : « ايد الله الامير ان جدالة أغارت على اخوتك فقتلوا الرجال وسلبوا الاموال وهزموهم » . فلما استوفى كلامه قال الامير ابو بكر : « انا لله وانا اليه راجعون » وبعث الى اشياخ لمتونة وكبرائهم وعظمائهم وقال لهم « ان اخوانكم قد اغارت جدالة عليهم وقتلوهم ... وأنا مسافر – ان شاء الله – اليهم لآخذ بثأرهم فانظروا منكم رجلا استخلفه عليكم » .. فأطرق الجميع رؤوسهم وصمتوا ثم رفعوا وبهتوا فلم يكن اجماع على ذلك فقال لهم : « لا بد ان تدبروا من ترونه يصلح لذلك » ثم انصرفوا فلما كان في ... ابو بكر صلى ودعا الله ان يسمي له رجلا صالحاً يستخلفه فهتف بـه هاتف مرعوباً فقال : « من هو هذا الغايب » فأنساه الله ذكر يوسف بن تاشفين الى ان وصل من بلاد المغرب في تلك الايام وحضر بين يدي ابي بكر بن عمر وهو يعيد القول على اخوته وهي الثالثة

فقال له يوسف بن تاشفين « انا أكون خليفتك ان شاء الله – عز وجل » – فقال له الامير ابو بكر : «صدقت يا يوسف انت والله خليفتي » وتذكر قول الهاتف له فولاه الامر بعده [١] .

ذكر حركة الامير أبي بكر بن عمر الى الصحراء

لما اخذ الامير ابو بكر في الحركة الى الصحراء ولى يوسف مكانه وقسم الجيش بين يوسف وبينه ،فقيل ان الذي ترك مع يوسف بن تاشفين من اللمتونيين الثلث ورحل معه الثلثان [٢] وذلك في غرة ربيع الآخر من سنة ثلاث وستين فشيعه يوسف وودعه وأوصاه ابو بكر فطاوعه . وكان ابو بكر بن عمر لما عزم على حركته تلك قال لزوجه زينب «اني مسافر منك برسم الفتن والحروب ولا يمكنني ان امشي عنك وانت في عصمتي فان أنا متّ كنت مسؤولاً عنك والرأي ان اطلقك » . فقالت له : « الرأي السديد ما تراه» فطلقها فذكروا انه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين « تزوجها فانها امرأة مسعودة » وقيل انها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها بذلك .

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين ونبذ من اخباره

لمـــا توجه الامير ابو بكر بن عمر الى الصحراء ولاه مكانه وترك معه الثلث من لمتونة اخوانه فاشتغل ببناء مراكش وتحصينها ، وحصل منها تحت

---

(١) في الروض : ٩٨ اختلاف واضح عما أورده هنا ، اذ يذهب ابن أبي زرع الى انّ أبا بكر بن عمر هو الذي استدعى يوسف وعقد له على المغرب ، وأن أشياخ المرابطـــين اتفقوا على تقديمه لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته ... الخ .

(٢) في الروض ان ابا بكر بن عمر ارتحل بنصف الجيش الى الصحراء .

سور وابواب في قصر الحجر [1] ، وأعانه القبائل في جميع أموره واحواله ، وحبب نفسه اليهم ، وأفاض احسانه عليهم ، وكان يكاتب الامير ابا بكر بكل مـا يصنع ، فيشكره على ذلك وابو بكر بن عمر في الصحراء يحارب جدالة حتى أخذ ثأره منهم في خبر طويل . وتزوج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية في شهر شعبـان المكرم من سنة ثلاث وستين بعد تمام عدتها ودخل بها فسرت به وسر بها واخبرته انه يملك المغرب كله فبسطت آماله وأصلحت أحواله واعطته الاموال الغزيرة ، فأركبَ [2] الرجـال الكثيرة ، وجمع له القبـائل أموالاً عظيمة ، فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد ... بنفسه وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع امسه ، حتى ... سلك اهل المغرب في قانون الضغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت ...

وفي سنة اربع وستين وأربعمائـة تحرك الامير يوسف بن تاشفين بعسكر جرار الى بـلاد المغرب ... ورجع الى وطاط الى ملوية الى ناحية جراوة ودوخ ما مر عليه من القبايل ودخلت كلها في طاعته ، هكذا ذكر ابن القطان في نظم الجمان .

وفي هذه السنة صنع الامير يوسف بن تاشفين دار السكة بمراكش وضرب فيهـا السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها درهم وربع سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية ، وهو الدرهم الجوهري المعلوم في وقتنا هذا ، وضرب الدينار الذهبيّ باسم الامير ابي بكر بن عمر في هذا العام .

وفيها ارتدت قبائل في القبلة في جهـة سجلماسة من زناتة وغيرهم فجهز اليهم يوسف بن تاشفين عسكراً قوّد عليه محمد بن ابراهيم اللمتوني فخرج في شهر ربيع الآخر وغنم تلك القبايل وقتل المرتدين ورجع بغنائم كثيرة .

---

(١) الحلل : واشتغل ببناء الحصن المسمى بحصن قصر الحجر برحبة مراكش وحصله تحت سور وأبواب وحصنه .

(٢) في المطبوعة : فركب .

قدوت يوسف الدواوين ورتب الاجناد وطاعته البلاد وكتب الى بعض اخوانـه في السر من ابي بكر بن عمر يحضهم على الوصول اليه والقدوم عليه ويعدهم بالخير الجزيل الحفيل فوصل منهم جماعة كبيرة .

وفي هذه السنة ولد ليوسف بن تاشفين مولود ذكر سماه المعز بالله منزوجه زينب النفزاوية .

وفيها قوي امر الامير يوسف وعظمت شوكته فاشترى جمـلة من العبيد السودان وبعث الى الاندلس فابتيع له بها جملة من الاعلاج فأركب الجميع (١) وانتهى عنده منهم شراء ماله مائتان واربعون (٢) فارساً ، ومن العبيد شراء ماله نحو الالفين ، وأركب الجميع فغلظ حجابه وعظم ملكه .

وفيها افترض على اليهود فريضة (٣) ثقيلة في جميع طاعته اجتمع له فيها ماية الف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر الف دينار .

وفي هذه السنة اتصل الخبر بالأمير يوسف ان ابن عمه الامير ابا بـكر بن عمر قد أخذ في الرجوع من الصحراء الى بلاد المغرب فاغتم لذلك غماً شديداً وحزن حزنـاً عظيماً وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته ورتب فيه ما رتب من الأجناد والضخامة ، فعرفت زينب ذلك في وجهه فقالت له: « أراك مهمومـاً مكروباً من وصول ابن عمّك الى ملكه الذي ولاك عليه ، والله لا ذاق ابو بكر طعمها أبداً،فطب نفساً وقرّ عيناً» فقال لها : «انه... استخلافه اليّ من بين كلّ بنيه ويثق عليّ فيهذه المملكة ولو كان غير ابن عمي لقاتلته » فقالت له « انا ادلك ... الله » فقـال « ما ذلك يا زينب فاني — والله — اعرفك ميمونة » ... قالت له « اذا قدم عليك وبعث مقدمـات رجـاله اليك فلا تخرج اليه [ولكن] بادره بهدية جليلة ... فلا يقاتلك على

(١) في المطبوعة : فركب ، وفي الحلل « فاشترى جملة من العلوج فأركبهم » .
(٢) في المطبوعة : مائتين وأربعين ، وفي الحلل : مائتان وخمسون .
(٣) في المطبوعة : فرضة .

الدنيا فان الرجل خير لا يستحل سفك دماء ... على امرك وتفوز بملكك – ان شاء الله –» . فقال لها : « والله لا خالفتك في امر تشيرين به ابداً »[1].

وفي سنة خمس وستين واربعماية كان وصول الامير ابي بكر بن عمر من صحرائه الى مراكش ، فوجد يوسف قد استبد بالمملكة واعجبته الامرة وطاعت له جميع البلاد الغربية ، فعلم انه مغلوب عليه ، وعزم على تسليم الامر اليه .

ذكر خلع الامير ابي بكر بن عمر نفسه عن الملك واسلامه ليوسف بن تاشفين

كان وصول ابي بكر بن عمر من الصحراء الى اغمات في الخامس لشهر ربيع الاول المبارك في السنة المؤرخة قادماً الى مراكش ، فنزل بخارج أغمات في مضاربه ، وتسابق اكثر أصحابه الى مراكش برسم رؤيتها ورؤية بنائها والسلام على اميرها يوسف ، وكانوا قد سمعوا عن ضخامة ملكه وجميل كرامته وجزيل احسانه وانعامه على اخوانه وقرابته ، فاجتمع اليه من القادمين عليه خلق كثير ، فوصلهم على قدر منازلهم ومراتبهم وأمر لهم بالكسى الفاخرة والخيول العتيقة وغير ذلك من المبرة والمكرمة ؛ فلما علم الامير ابو بكر أحوالَ يوسف وما هو عليه من الميل الى نخوة الملك وعز السلطان عزم على تسليم الأمر له ، وعلم أيضاً يوسف أحوال الأمير أبي بكر من اللين في أمره لتقواه وديانته ؛ [كما ان يوسف] [2] استمال نفوس اخوانه

(١) قال في الروض : ٩٨ « فشاور (يوسف) زوجته في ذلك الأمر فقالت له: يا يوسف ان ابن عمك رجل متورع في سفك الدماء، فاذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع وأظهر له غلظة... ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدية والخلع والثياب والطعام والطرف واستكثر من ذلك فأنه ببلاد الصحراء، وكل شيء عندهم من هنا مستطرف » .

(٢) زيادة لتوضيح المعنى .

بإحسانه وانعامه وزاد طمعه في الانفراد [1] والاستبداد .

وانقطع رجاء الأمير أبي بكر من الملك ، فبعث الى يوسف يعلمه بوصوله اليه ، وعيّن له يوماً معلومـــاً يكون فيه اجتماعه به ، فخرج يوسف من مراكش في جنده وعبيده ، وتلقاه في نصف الطريق ، فسلم عليه راكباً على دابته ولم تكن قبل عادته ، ثم نزل الى الأرض وقعدا على برنس بسط لهما في ذلك المـكان ، فسمي ذلك الموضع فحص البرنس الى الآن ، وأبو بكر مع ذلك متعجب من كثرة عساكره واحتفال هيئته ، يطيل النظر في ذلك كله ، فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف في مصالح المسلمين ثم قال له : « يا يوسف انت ابن عمي ومحل أخي وانا لا غنى لي عن معاونة اخواننا بالصحراء ، ولم أرَ من يقوم بأمر المغرب غيرك ، ولا أحق به منك ، وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وانت حقيق به وخليق له ، وما وصلت اليـــك الا لامرتك [2] في بلادك واسلم لك [الأمر وأعود] في [الصحراء] مقر اخواننا وموضع استيطاننا، فدعا له الأمير يوسف وشكر [وقال له : لك عليّ] « ألا اقطع امراً دونك ولا استأثر – ان شاء الله– بشيء عليك » وأحضرَ [أشياخ لمتونة] الصحراويين ، وخلع له ابو بكر نفسه ، وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبايل ، وعاد الامير ابو بكر الى اغمات موضع نزوله ورجع يوسف الى مراكش دار مملكته ، فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته فهي التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملك واتمه نصراً على العدو ، ولم يهزم له قط جيش ولا ردت له راية بملك ، والله يؤتي ملكه من يشاء .

(١) في المطبوعة : في الانقداد .

(٢) الحلل : الا لأمدنك .

ذكر الهدية التي اهداها الامير يوسف بن تاشفين الى ابن عمه ابي بكر بن عمر (١)

لما وصل الامير ابو يعقوب الى مراكش بعد اجتماعه بالامير ابي بكر بن عمر وخلعته له نفسه وتقديمه ليوسف وبيعته شرع يوسف في توجيه الهدية المذكورة وذلك خمسة وعشرون الف دينار من الذهب ، وسبعون فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات ، وسبعون سيفاً محلاة ، وعشرون من الاشابر (٢) المذهبة ، ومائة وخمسون من البغـال والذكور والاناث ، وخدوراً كثيرة بنفيس الامتعة والكسى الفاخرة ، وبعث له عشرين جارية ابكاراً وجملة من خدم الخدمة ووجه له بمائتين من البقر وخمسمائة رأس من الغنم والف ربع من دقيق الدرمق واثني عشر الف خبزة وسبع مایة مد من الشعير وبعث اليه وزناً صالحاً من العود والعنبر والمسك .

وكتب يعتذر له من ذلك ويحلف انه ما بقي له شيء مما ادخره واقتناه فطابت نفس الامير ابي بكر وقـال : « خير كثير هذا من يوسف » . ثم انصرف بهديته بعد ما اعطى منها بعض اخوانه وخاصته ؛ وأقام بصحرائه ثلاثة اعوام والامير ابو يعقوب يمده بالتحف والهدايا الى ان قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لانه كان يحاربهم ، حتى قضى الله بوفاته بسهم اصابه كان فيه منيته ، وذلك في سنة ثمان وستين وأربعماية .

وفي سنة ست وستين واربعماية بعث الامير ابو يعقوب مزدلي بن بانلونكا بعسكر ضخم الى ناحية سلا فافتتح تلك القبائل من غير قتال ولا نزال، فأمنهم

---

(١) انظر الحلل الموشية ١٦ ـ ١٧ ، وقارن بما هنا فان ما في الحلل اكثر تفصيلا .

(٢) الحلل : المهامز .

وانصرف عنهم في الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر ، وكان خروجه من مراكش في الثاني اشهر صفر ، فكانت غيبته هذه نحو ثلاثة اشهر .

وفيها بعث ايضاً يوسف بن تاشفين عسكراً الى الغرب قوّد عليه يطي بن اسماعيل ولما وصل الى وادي بهت بعث رقاصاً الى امير مكناسة الخير بن خزر الزناتي بأنه قد عفا عنه وبعث كتابه اليه بذلك فقرأ كتابه على زنانة وشاورهم في أمره فقالوا « نقاتله بأجمعنا حتى نخرجه من بلادنا » فقال لهم « لا سبيل لذلك ولا افعله حتى ابعث له » فبعث اليه منغفاد بن عبدالعزيز الزناتي فلما وصل الى يطي بن اسماعيل رحب به واكرمه ولمن كان معه فقال له منغفاد : « نحن رجال الأمير ابي يعقوب وبلادنا بلاده ، غير انا لا بد لنا من الاجتماع به وشروط نشترطها عليه وحينئذ نسلم البلاد اليه ونخرج له عنها» وضمن له اللمتوني ابن اسماعيل تلك الشروط عنه وتعاهد على ذلك معه ، ودخل مكناسة وخرج الخير منها اميرها ومن كان معه من زناتة الى موضع القناطير ، وولي مكناسة بعد الخير بن خزر الزناتي الافضالُ اللمتوني ، ورحل ابن اسماعيل بعسكره مع الخير المذكور الى مراكش ، وأنعم عليه الأمير يوسف بكل ما أراد ، ثم صرفه فبقى الخير مستوطناً بخارج مكناسة الى ان مات رحمه الله .

ذكر تسمية يوسف بن تاشفين رحمه الله بأمير المسلمين

وفي هذه السنة اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وقالوا له : « انت خليفة الله في المغرب وحقك اكبر من ان تدعى بالامير إلا [1] بأمير المؤمنين ، فقال لهم « حاشا لله ان اتسمى بهذا الاسم ،

(١) الحلل : بل ندعوك .

إنما يتسمى به الخلفاء وانا راجل[١] الخليفة العباسى والقائم بـدعوته في بلاد الغرب» فقالوا له « لا بد من اسم تمتاز به» فقال لهم « يكون أمير المسلمين» فقيل انه هو الذي اختاره لنفسه ، فأمر الكتاب ان يكتبوا بهذا الاسم اذا كتبوا عنه او اليه .

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة افتتح أمير المسلمين يوسف مدينة فاس : وذلك لما افتتح مدينة مكناسة ووصله أميرها الخير وأحسن اليه وأكرمه وخيّره حيث يريـد السكنى وأسعفه في كل مطلب ، جهّز أمير المسلمين عسكراً جراراً وقدّم عليه ابن عمه يحيى بن وآسينوا اللمتوني ، وأمره بمنازلة[٢] فاس فكان وصوله اليها عقب رجب الفرد من هذه السنة . وكان امراء فاس يومئذ ابناء حمامة ، فقاتلهم يحيى قتالاً شديداً سبعة أيام ، وفي الثامن دخلها عنوة ، مات فيها من اهل فاس بشر كثير وسلبت ديارهم ثم عفا عنهم وانحصر ابنا حمامة الفتوح ودوناس في قصرهما ، ثم طلبا[٣] الامان فعفي عنهما في نفسيهما ، فكتب بفتح فاس وبأخبار الفتوح بن حمامة واخيه الى الامير يوسف بن تاشفين فأمر بتوجيههما حيث شاءا[٤] فاستوصى (؟) الفتوح مغيلة ،واستولت لمتونة على مدينة فاس حرسها الله .

وفي هـذه السنة وصل الخبر الى يوسف بن تاشفين بوفاة الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبيعة الخليفة المقتدر بالله في الثالث عشر لشعبان .

---

(١) كذا هو في المطبوعة وفي الحلل .

(٢) في المطبوعة : بمنازل .

(٣) في المطبوعة : طلبوا .

(٤) في المطبوعة : شاؤوا .

فتح مدينة تلمسان

وفي سنة ثمان وستين واربعماية جهز امير المسلمين يوسف بن تاشفين عسكراً ضخماً وقدم عليه ابن عمه مزدلي اللمتوني وبعثه الى مدينة تلمسان [1] وكان اميرها يومئذ العباس بن يحيى امير زناتة ، فكتب امير المسلمين اليه كتاباً بالعفو عنه ان نزل دون قتال ، فخرج هذا العسكر من مراكش في أوائل شهر محرم ووصل الى مدينة تلمسان عقب شهر صفر ، فقدم مزدلي الكتب الى العباس بكتاب امير المسلمين فعند وصول الرقّاص بالكتاب اليه وقف عليه ، فخرج من تلمسان فأنعم عليه الامير مزدلي بمطلبه ووافقه في مذهبه ، ورحل الامير مزدلي الى تلمسان ودخلها في مهلة وحال هدنة ثم ولى عليها ابنه يحيى ابن مزدلي ورجع الى مراكش ، فكان وصوله اليها في نصف ربيع الآخر من هذه السنة ومعه العباس صاحب تلمسان فأنعم عليه أمير المسلمين بكلّ خير ، وأمر له بظهائر كريمة وانصرف الى وطنه .

وفي سنة تسع وستين واربعماية وصل ابراهيم بن ابي بكر بن عمر من الصحراء يطلب ملك أبيه ، فنزل بخارج أغمات في خلق كثير من اخوانه لمتونة ، فسمع بذلك امير المسلمين فبعث اليه الامير مزدلي فقال له « ما الذي تريد يا ابراهيم ؟ » ، قال : « اطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف » قال مزدلي : « ان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله تعالى قد خصّ هذا الرجل بالملك دوننا ، فان كنت عاقلاً فاطلبْ منه ان يعينك بمال وخيل ترجع بها الى بلدك ، وان طلبت غير هذا اخاف ان يجعل على رجلك قيداً ويحبسك عنده عبداً ، وما قلت لك ذلك الا بوجه الشفقة عليك » فقال له : « يا عمي مزدلي — رضي الله عنك — عسى ان تجتمع معه في امري وتبين له

---

(1) يجعل ابن خلدون هذه الغزوة سنة ٤٧٢ .

حالي » وكان الامير مزدلي حسن السياسة صحيح المذهب عارفاً بخدمة الملوك، فهدن ابراهيم المذكور وقال له : « أقمْ في موضعك حتى آتيك بكل ما يرضيك » فانصرف عنه ووصل الى الامير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه اليه وانعم الامير يوسف عليه بمال وخيل وكسى وغير ذلك بعد ما بولغ في كرامته وضيافته ، واحتمل له ذلك مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وانصرف عنه من هنالك ، ولم يجتمع بالأمير يوسف ولا رآه وانصرف الى الصحراء وبقي بها الى ان مات .

وجرت لأمير المسلمين مع أمير تازى في هذه السنة – وقيل في سنة سبع وستين – حروب شديدة بفحص الوادي هزمه أمير تازى وهو أبو يعلى وكان معه القاسم بن عبدالرحمن بن ابي العافية على لمتونة وذلك بموضع (اجرسيف).

وفي هذه السنة ولد للأمير يوسف بن تاشفين ولده الفضل من زوجه زينب النفزاوية وكانت [أحب] ما لديه ، امرأة غالبة عليه ، ليس ... ولا كان أمر إلا امرها وكان يقول لبني عمه اذا خلا بهم وورد ذكرها : انما فتح [البلاد برأيها] ..... (١)

---

(١) وقع في أوراق البيان المغرب هنا خرم كبير ضاعت به أخبار الأحداث بين عامي ٤٦٩ - ٤٩٥ وذلك يشمل بقية فتوحات يوسف في المغرب ، وجوازه الأول الى الأندلس وأخبار معركة الزلاقة (٤٧٩) والجواز الثاني (٤٨١) والثالث (٤٨٣) وسقوط أكثر دول الطوائف ؛ وهذه الأحداث مما يمكن مراجعته في روض القرطاس والحلل الموشية وغيرهما ، وشرحها يطول وليس في الامكان استيفاؤها في هذا المقام ، ولكننا سنذكر في الملحقات بعضاً منها (وخاصة النصوص المتصلة بالزلاّقة) .

أما الخبر عن سقوط بلنسية في يد السيد الكنبيطور فانه من أصل ابن عذاري ، غير أن الأستاذ ميراندا كان قد أسقطه من هذه القطعة لأن ليفي بروفنسال كان قد نشره مستقلاً ، وقد أعدناه الى موضعه اعتماداً على نشرة الأستاذ بروفنسال .

[الكبيطور في بلنسية]

وكان الطاغية لذريق النصراني ، الملقب بالكَبيطُور قد أخذ بمخنق بلنسية وألقى زوْره عليها ، يجبي رعيتها ويستغلها حاضرة وبادية . وقد استضعف حفيد ابن ذي النون ، ملكها المشئوم ، وكان اجتلبه ليحترم به ؛ فرمى بسهمه إلى نحره، فخلعه اللعين وبقي حتى أراد الله بما أراد من حتفه. وكان ايضاً صاحب سرقسطة ابن هود يمير لذريق واصحابه النصارى، ويعضده بالسلفة ، ويوجه المميرة يمنة ويسرة ، فكان ما يأتي به الذكر . قال محمد بن علقمة: وفي شعبان من العام ٤٨٥ هـ انتقل الكبيطور الى سرقسطة، واستخلف على أطعمته المختزنة وضرائبه المفترضة ببلنسية، فتنفس مخنق أهلها، وانفرجت الضيقة عنها .

ثورة القاضي ابن جحاف ببلنسية

ولما ظهر ابن عائشة بمرسية ، وتوالى ظفره بها وبذواتها ، وقع الإصفاق من القاضي أبي أحمد جعفر بن عبدالله بن جحّاف ، وصاحب الأحكام ابن واجب ، وأهل العقد والحل من اهل بلنسية ، على استدعاء محمد بن عائشة ؛ فأنفذ اليهم لمـّة من المرابطين تحت نظر ابن نصر، واتصل النظر بمن ببلنسية، فنظر أحباء سلطانهم ابن ذي النون في إنفاذ عيالهم وذخائرهم وأموالهم إلى المعاقل والقلاع ، وأخرج حفيد ابن ذي النون بعض عياله الى ابن ياسين قائده على حصن شُبرُب ، والى ابن حُديدة بحصن العقاب ، وفرّ على وجهه من فيها من الروم من رجال لذريق . وخرج القاضي والفقهاء لتلقي ابن نصر ، رسول ابن عائشة وإدخاله البلد، وفر القادر عن البلد إلى دار هجينة، ففحص ابن جحّاف عنه إلى أن ظفر عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان .

مقتل القادر حفيد ابن ذي النون

لما حصل بيد ابن جحاف ، أمر بقتله ، فتولى ذلك فتى من بني الحديدي زعيم طليطلة ، فقتله بيده كفعله بوليّه ابي بكر بن الحديدي ، وحُمل رأسه على عصا يطاف به الأسواق والسكك . واحتوى ابن جحّاف على ما كان معه ، وطرحت جثته في سبخة، فواراه رجل من التجار : اجتاز به على باب مغظى بحصير خلق ، ودفنه دون كفن .

وتبوّأ ابن جحّاف تبوُّؤ الرياسه، ورتب أرزاق الجند والخدمة واستشعر غلظة الرؤساء ، وأظهر أبهة الملك ، وطمح بصره إلى قضية القاضي محمد ابن إسماعيل بن عباد ، فما حسن النظر، ولا ساعده القدر ، فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء ، والغلمة أمامه ، ويركب فيتقدمه العبيد والطرْد ، ويتأخر عنه الجند ، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء .

وكتب لذريق الكبيطور إلى ابن جحاف المذكور يهنئه على تلك الأمور، وي .. بالحسنة التي اكتسبها في رمضانه بقتل سلطانه ، ويطلب منه أطعمته المختزنة عنده ببلنسية . فراجعه الكبيطور ، يقسم بمغلظات الأيمان ألا يبرح من بلنسية حتى يظفر به، ويأخذ ثأر ابن ذي النون منه ، وأنفذ الى الحصون المجاورة يستمد الأقوات فأمده من اتقى شره ، وأقبلت الميرة إلى محلته ؛ واتصل الضرب منها الى بلنسية ، فأضر بها ، وقتل من ظفر به من أهلها . وكان معه جملة من رجال ابن ذي النون .

وفي خلال ذلك ، ألحق ابن جحاف من الجند عدداً ، وأنفذ إليه ابن عائشة بعد ذلك المدد مدداً ، واجتمع له ببلنسية زهاء ثلاثمائة فارس ، وابن جحاف يزداد غلظة وحجبة ، وجيش الروم يراوحهم ويغاديهم ، والحرب تدور عليهم . فمنهم القتلى والجوحى . وأمل الكبيطور إزعاج المرابطين من بلنسية ، وكان ابن جحاف قد استثقلهم ، لكنه يستعملهم ، واستشعروا

ذلك منه . وداخل الكبيطور ابن جحاف في اخراجهم واستبداده بالملك لنفسه ليقيمه معه مقام ابن ذي النون ، يحمي حوزته ، ويقاتل عنه ، فطمع في ذلك .

وفي سنة ٤٨٦ هـ عظُم بلاء الطاغية على بلنسية ، واشتد حالهم ، وعظُم أمرهم . فاستصرخوا أمير المسلمين يوسف ، وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم . فجدّ في أمرهم ، وأمر قواده وعماله على بلاد الأندلس بنصرهم ، فتلاحقت جموع المسلمين بشاطبة، واتصل النبأ بالعدو ، فما برح ، ولا تزحزح . فوصلت الجيوش ومعها من المطوعة خلق كثير خيلاً ورجلاً ، فاستقبلت بلنسية سيراً حثيثاً حتى أشرفت عليها ، واستشرف أهلها عليهم ، واستبشروا بنصرهم والانتقام من عدوهم ، واستنشقوا ريح الحياة . وخرج العدو الى طرف محلته ؛ فعبأ الجيش فرقتين وأمر كل فرقة ، فلزمت مصافها . وأوقع الله لما قضاه في قلوب المسلمين النكول عنهم ؛ فرجعوا عودهم فبُهت أهل المدينة ، وسقط في أيديهم ويئسوا من الحياة . واستأسد العدو ، واشتد كلبه ، وأقام يجبي الرعية ويوجه المغيرة ، ويمنع الدخول الى المدينة ، ويعيث في فلّ الفارّ عنها ، ومن تحرك من قريته ، أو شُعر بحركته ، يُستبعد أهله وولده . فلم يقدم أحد على التحرك ولا حدث نفسه بالتحول . ولما صدرت جيوش المسلمين الى شاطبة ، بادر الأمير أبو بكر بن ابراهيم إعلام أمير المسلمين .

وفي سنة ٤٨٧ هـ لما انصرف جيش الأمير أبي بكر بن ابراهيم اللمتوني بحكم القدر السابق عن بلنسية ، أيقن من فيها بالهلكة ، وغلب على الناس اليأس ، وضاقت النفوس ؛ وزاد حقد العدو ، وقسا قلبه ، وهلك أكثر الناس جوعاً ، وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ، ومن فر الى المحلة فقئت عيناه ، أو قطعت يداه ، أو دقت ساقاه ، أو قتل . فرضي الناس بالموت في المدينة ، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافاً لانفساح مدة الحصار . وتضاعف حقد العدو لصبرهم وطلبهم النُّصرة .

ذكر تغلب العدو على بلنسية في هذه السنة

لما بلغ بأهل بلنسية الماءُ الزبى ،وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ، ولا نصر ولا غوث ، ألجأتهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار ، لا بحكم الاختيار . فتجمعوا إلى قاضيهم أبي المطرّف ابن جحاف ، وسفروا إلى الطاغية الكبيطور – لعنه الله – من يتوسط لهم معه أخذ الأمان . فأجاب في هذا الشأن ، وعقد نيته على الختر ، ونقض العهد ، وإعطاء أمان مثله من الأنجاس . فخرج اليه القاضي ، وعقد عليه العقود ، وأخذ المواثيق والعهود، وحزم في كل ذلك ، وبلغ الغاية التي ما بعدها غاية ، ولا وراءها لمجتهد نهاية ، فلما كمل الأمر فتحت له الأبواب ، ودخل المدينة بجملته ، وذلك في جمادى الأولى من هذه السنة فلم يعمل هو وأصحابه – لعنهم الله – ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال، فانتشطت الأنفس من عقال،وانبسطت الآمال ، وأمن الناس . وهو مع ذلك يراعي أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة ، وحصل – لعنه الله – على هذه الحضرة ، ورمى على ما هي عليه من النعمة والنضرة والحسن والبهجة .

واشتد جزع المسلمين بدانية وما اتصل بها من ذلك الصُّقع من القلاع والقواعد ، وكثر شر الغارات من بلنسية عليها،وتوالى الضرب وعظم الضرر، وانقطعت السابلة ، وخافت الطرق ، وصار أهل تلك الجهات في أضيق من العزق ، وقد حميت الفتنة . فخاطب الناس أمير المسلمين مستصرخين معلمين بفساد الشرق ، وإشراف الأمة على الهلكة . فتحرك الى مدينة سبتة، وتقدم أمره الى القبائل باللحاق بها ، وأقام هنالك يجند الأجناد ، ويسرب الأمداد، وجعل تلك الجيوش وأمرها الى نظر ابن أخيه الأمير أبي عبد الله ابن أخي يوسف لأمه ، والأمير أبو بكر هو أيضاً ابن أخي يوسف بن تاشفين لأمه وابن

عمه . وأوعز أمير المسلمين الى صاحب اغرناطة وما والاها أن يمدوه بأنفسهم ورجالهم ، وكتب الى صاحب شنت برية ابن رزين الملقب بالحاجب ، والى الشّنياطي – وكان من أنجاد الفرسان ودهاة الحرب – ليجتمعوا مع ابن أخيه لاجتماع الكلمة واتصال المعاضدة والمظاهرة على منازلة العدو ببلنسية .

ولحق الجيش بالأندلس عقب شعبان المكرم ما ينيف على أربعـــة آلاف فارس ، واضعافها مرات من الرجال . وتحرك من أمر بالحركة الى الاجتماع به. وأقبلت دواب الميرة من كل صُقع ، ونزلت المحلات على فرسخ من بلنسية. فصارت مصراً عظيماً . ورأى الروم بحراً محيطـــاً ، وهموا بالفرار وإخلاء بلنسية إلا اللعين زعيمهم الكبيطور، فلم يَرُعه في ظاهر الأمر ذلك الجمع ولا عبأ به ، وكانت له في الطير عيافة وزجر، يضيف الى ذلك مخرقة من كذبه، يقوّي بها نفوس أصحابه ، وفي ذلك يقول أحد أهل بلنسية :

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا أو نقـدّوه إذا مـا طيره زجرا
سيوف صنهاجة في كل معترك تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

وعمد اللعين ، عند نزول المحلات عليه ، الى الضعفة من النساء والولدان من المسلمين فأزعجهم الى المحلة ، وقال : « الحقوا بأهل ملتكم ! » فوقعن الى أيدي السودان وخدمة الدواب والسفلة من الباعة فغلبوا عليهن وفسقوا بهن ، ولم يُرفع ذلك الى صاحب الجيش ، فيقع التغيير والنهي عن المنكر .

ثم رحلت المحـلة الى دانية وغيرها ، فضاع الحزم وانتقض العزم ، وظهر العجز ؛ واختل الجيش ؛ وصاحبه في غفلة عنه ، مغتر بكثرته ، يقدّر أن الجيش بوفره ، ويتهاون بعدوه ، ويحسب أنه مثله على مثله . فبدت العورة ، وأمكنت الفرصة . وكان الكبيطور قد ضاقت نفسه من مقاومة هذا الجمع ؛ فاستجاش الأذفونش ، وشاع ذلك في محلات المسلمين ، فتوجست النفوس ؛ وأشربت خوفه القلوب ، وكانت هذه الأمور ، دواعي لما جره المقدور .

ذكر غدر لذريق اللعين لمحلة المسلمين

ولما رأى لذريق – لعنه الله – ضياع المحلة ، وتفرق الناس عنها في كل وجهة ، اعتبر الغرة وأعمل الحيلة ولم ينتظر النصرة . فركب في بعض خيله ، وكمن البعض ليلاً على مقربة من المحلة ، وخرج صبح تلك الليلة بمن معه في أهبة وعلى تعبئة ؛ والناس في طمأنينة وعلى غفلة . فلما اشتهر من في المحلة ، وقعت الرجة وعلت الصيحة . وركب من بقي من المرتزقة والمطوعة ، ولم يبق في المحلة إلا الغلمة ومن لا يدفع عن نفسه . وصممت الخيل الى لذريق المذكور ، فاستطرد لهم إلى المدينة ، ونشطوا في أثره ، فاستدرأ بالسور ، ولازمته الجيوش تصيب منه وتظهر عليه فخرجت كائنة إلى المحلة ، فدوختها . وكان الأمير محمد ابن أخي أمير المسلمين شاكياً متخلفاً بها ، فبادر بالخروج عنها . واتصلت بالمسلمين الصيحة بدخول المحلة ، فبهت الناس ، ولم يشكوا ، لما كان في انفسهم ، أن الأذفونش طرقها . فهام كل على وجهه ، واخذوا في غير طريق ، ومن صمد إلى المحلة ، فرأى النهب فيها ، والخيل تخترقها ، تنكب عنها ، فلم يرجع أحد اليها . وأقبل العدو على النهب ، ولم يتبع الفل ، ورفه عن الخيل لسقوطها من عنده بالضيعة لما لحقها ببلنسية . فلم يعمل سيف ، ولا أريق دم إلا أفذاذ رزقهم الله الشهادة .

واتصل النبأ بإذفونش – يرغمه الله – وقد تجاوز في نصف طريقه لنصرة لذريق ، وبلغته هديته من نهب المحلة ، فكره أن يفرق جمعه ويخفق جيشه ، فقصد أرض وادي آش من نظر اغرناطة ، فتردد في جهاتها ، واكتسح ما ألفاه بها ، وحمل جملة من رعيتها المعاهدة لعمارة أرض طليطلة .

واتصل النبأ ايضاً بأمير المسلمين يوسف ، فبلغ منه كل مبلغ ، واشتد غضبه على ابن اخيه لتضييع الحزم وإسلام المحلة دون حرب يقوم به عذر

وانتقلت جيوش المسلمين إلى دانية ، ثم إلى شاطبة فابتدروا بمخاطبة أمير المسلمين معتذرين،فأعرض عن كتبهم وأضرب عن جوابهم . ولما طال لإعراض أمير المسلمين عن ابن أخيه ومن معه ، استلطفه ورجع في أمره إلى القضاء والقدر ، فسلّم الأمر لله فيما قضى ، وعاد من العتب والسخط الى الرضى ، وخاطبه بلزوم شاطبة لتشمير العادية ، عن تلك الناحية ، وقطع الطرق إلى بلنسية ، وحضه على الضرب عليها . فبلغ من ذلك ما في وسعه وبذل غاية جهده . ولم يزل أمير المسلمين يمد ابن اخيه بالأموال والرجال إلى أن عظم الجيش وكثف، وضخم أيضاً أمر الفتنة والتعب . وبعد ذلك كتب اليه ، يأمره بالقدوم عليه . وبعث عوضه أبا الحسن علي بن الحاج ، فلحق بشاطبة وانضمت الجيوش عليه . وكانت هدنة على دَخَن !

ذكر حرق القاضي أبي أحمد ابن جحاف
ومحنة أهله وقرابته ومحنة أهل بلنسية .

ولما تمهدت بلنسية للكبيطور –لعنه الله! – بدأ بثقاف قاضيها ابن‌جحاف وثقاف أهله وقرابته،فعمهم الثقاف، وبلغتهم المحنة ، وجعل يطلبهم بمال حفيد ابن ذي النون . ولم يزل يستخرج ما عندهم حتى استصفى أموالهم واستنفد أحوالهم . فلما لم يترك لهم ظاهراً ولا باطناً ، أمر بإضرام النار ، وسيق القاضي أبو المطرّف ، يرسف في قيوده ، وأهله وبنوه حوله وقد حشر الناس من المسلمين والروم . ثم قال للملأ من المسلمين : « ما جزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم؟ » فصمتوا ، فقال لهم : « جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! » وأمر به وبجملته الى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والروم ، وتضرعوا اليه في ترك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب لهم ، ولا علم بتلك الأمور عندهم ، فأسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة

وترك النساء والصبيـة . وحُفر للقاضي حفرة ، وأُدخل فيها الى حُجزته ، وسوّي التراب حوله ، وضمت النار اليه . فلما دنت منه ، ولفحت وجهه ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم ضمها الى جسده . فاحترق – رحمه الله تعالى –

ولم يكف غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة، واجتهاده في طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاءً في استمساك البلدة وإبقاء الكلمـة .

وعمد الطاغية – لعنه الله – بعد إحراق القاضي – رحمه الله – الى الجلة من أهل بلنسية، فثقّفهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل الناس في المحنة أسوة ، يأخذهم على طبقاتهم ، حتى عمتهم المحنة ، وهلك في ذلك الثقاف كثير منهم – رحمهم الله وجعلها كفارة لهم .

وممـا امتحن به أهل بلنسية في هذه السنة المؤرخة الغلاء ، قال محمد بن علقمة : بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمثقال ونصف، ورطل الشعير بمثقال، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ، ورطل الجلد البقري بخمسة دراهم .

وفي ربيع الثاني ، عظم البلاء ، وتضاعف الغـلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جحاف اقتحام الدور فحصاً عن القوت. وأعاد ابن جحاف استصراخ ابن هود ورغّبه في المال والبلد ، مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر .

وانسلخ هذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ، ومـا سواه تابع له . ولا يصل الى إدراك شيء من الموجود إلا أهل الجاه ، وترمّق سائر

الناس بالجلود والأصباغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفئرة والقطط وجيف بني آدم. وهُجم على نصراني وقع في الحفير، فأخذ باليد ، ووزع لحمه.

وجدّ الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار ، فعبث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم في صوامع الأرباض وبواسق الأشجار .

ودخل جمادى الأولى ، وعدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس . ولم يبق من ذلك الجم إلا نزر يسير. وتوالى اليبس، واستحكم الوباء، وبينما الرجل يمشي، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلا اثنان لابن جحاف وابنه ، واثنان لابن رُتَنْبَيْر . وباع ابن رتبير فرسه من الجزارين بمائتي مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال ، فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير ، وآخره باثنى عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالاً .

ولما بلغ الأمر الى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسويف والمطل ، اجتمع الناس الى الفقيه ابن الوليد الوَقَّشي في التكلم لابن جحاف . فأخذوا الأمان بشرط التوقف ريثما يستصرخ من بمرسية وصاحب سرقسطة ، وعلى بقاء ابن جحاف على حاله آمناً في نفسه وماله وجميع أهله ، ويُخَلِّي اللعين عن المدينة بعد ما قدم عليها ابن عُدَيْس مشرفاً ، وتكون الأبواب بأيدي الروم البلديين الى آخر الشهر المؤجل . وخرج الأرسال في منتصفه ، وهو جمادى الأولى . وفي هذا اليوم وصل القمح ثلاثة مثاقيل للرطل ، ورطل الشعير مثقالين ونصف ، وأوقية الجبن بعشرة دراهم ، وبيضة دجاجة بثمانية دراهم. وبعد ما نفذت الأرسال ، ارتفعت الحرب ، ولان السعر ، والحمد لله . وذلك لما انصرم الأجل ، خرج القاضي الى الكبيطور يوم الخميس منسلخ الشهر المذكور . ثم صار وفتح الباب ، ودخل اللعين الى المدينة مع جملة من رجاله. وصعد جماعة منهم ، فملكوا الأبراج والأبواب ، وتسابق الباعة من موضع المحلة بالخبز والفواكه الى المدينة . وخرج أهل البلد اليها لابتياع القوت منها ،

فتهللت الوجوه ، وانبسطت النفوس ، إلا أهل العقول والنظر في العواقب .

واستمرت المحنة عليهم إلى أن دخل شهر شعبان ، فاتصلت الأنباء أن عساكر المسلمين بمرسية . فأشاع الروم : « إنه متى نزلت علينا محلة المسلمين، أمضينا السيف على أهل بلنسية » ومشى بريحـه : « من وجد عنده شيء من آلات الحديد ، فماله ودمه حـلال ! » فبرىء الناس منه حتى من الإبر والمسامير ، ووضعوا ذلك ببـاب القصر ، وقد تضاعف الجزع والخوف . ثم مشى بريحه من الغد بالخروج إلى البحر لجر القطع التي فيه إلى البر، فلما تكامل الناس ، لحق بهم المترجم مع زعماء الروم ، فميزهم ، فمن كان من أهل اليسار صُرف إلى المدينة ، ومن كان من أهل النجدة جُرد ونُفي ، وغلب على الظن أنهم قتلوا ، فكان الحزن في دورهم. واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان ومحلة الأمير محمد بن تاشفين ابن أخي امير المسلمين بقرب المدينـة ، واجتمع على الأمير محمد جميع عساكر المرابطين المغربية والصحراوية ، وجميع عساكر الأندلس . فلحق به تأييد الدولة صاحب لاردة ، وسيد الدولة من طرطوشة، وحسام الدولة من شنت بريّة ، ونظام الدولة من البُونْت ، فكانت أفعالهم ضد ألقابهم ، ولحق الشنياطي من الثغر، وابن ياسين صـاحب شبرب وابن يَمْلُول صاحب حصن الأشرف وغير هؤلاء المذكورين ، واستهل هلال شوال وصلى الناس بمنزل عطاء على ساقية هوارة ، ومن كان بالمدينة من النصـارى المعاهدين يتصنع لمن بها من المسلمين ، ولا شك عندهم في غلبتهم لهم .

وفي الثامن من شوال ، اشاع اللعين ان ابن ردمير (ملك ارغـون) لحق بجملته لنصرته ، فأعمل الحيلة وأخرج جمعاً من الروم ، وأمرهم أن يشغلوا المسلـمين بالتناوش ليظنوا أنه الكمبيطور ، وخرج هو من حومـة أخرى ، فأجفلوا أمامه ، فأخذ الى المحلة ، فدوختها خيله ؛ واتصل الصراخ بالامـير محمد ، فكر اليها ، ومتى انفض الناس عنه والمحلة تنهب ، فتوقف العدوّ عن الاتباع وأقبل على النهب . ثم رجـع الى المدينة ، فمشى بريحه

باجتماع المسلمين الى القصر ، ثم خرج عليهم ونظر اليهم وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم وأن ذلك ما أغنى عنهم ، وجعل ينظر في عطفه ، ويشمخ بأنفه . ثم قال : « انظروا إلي في سبعمائة الف مثقال ، وإلا هلكتم ، وأحلت السيوف عليكم » ثم خرج وبقي المسلمون في القصر ، وأغلق عليهم الباب ، فصاروا في سجن ، والروم تحفهم بالاسلحة ، فرأوا الموت ، ووقع البهت ، وخرست الألسنة . ثم رجع اليهودي وزيره اليهم ، وقال لهم : « لم أزل ألاطفه حتى قاطعته عليكم بمائتي الف مثقال فبادروا بتوزيعها ، وافدوا أنفسكم منه » فتوزع العدد على الأحوال واشتد ثقاف الاغنياء .

وبلغ اليهودي - لعنه الله - من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب وسلط اليهود على الاسلام ، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية ، ومنهم الأمناء الموكلون ، والمتصرفون ، وأصحاب الرسوم ، وخدام البر والبحر . وجلس اليهودي للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسوط ، وقيض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل عدو ، فإن جاء بشيء وإلا أخذ بالسوط والعذاب ، وتمادت هذه المحنة مدة ، فلا قوة إلا بالله العلي العظيم .

.. رجاين من اجناد رجاله وبقي المستعين بن هود المذكور في محاربة مع الروم الى ان وصل اننه ... ذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر فتح بلنسية وعودها للمسلمين

قال أبو بكر يحيى بن محمد الانصاري : اخبرني ابو عبدالله البوني قال : لما لحق الامير مزدلي ... صدر ذي القعدة من السنة الفارطة نزل بقربة منها ، كما تقدم ذكره ، وكان الروم الذين بالمدينة قد استصرخوا ملكهم الاكبر اذفونش فت[illegible] اليها بجيش أخشن ؛ فلما كان على فرسخين منها أفرج الامير

مزدلي عنها وصار بمحلته الى قلبيرة (١) فأقام الاذفونش ببلنسية نحو شهر والروم ترومه على التمسك بها ويرغبونه فيها ويهونون عليه امر جيوش المسلمين ، فلما ألحوا عليه خرج بجيوشه لقصد قلبيرة وهو يظهر القصد لأكل الزرع وفساده – يستر استطلاع جيش الامير مزدلي في باطن امره – فتحرك الامير مزدلي لما اتصل به ذلك من هنالك وكتّبَ الكتائب ، وعبأ المواكب في وجه الاذفونش، فظهر لأذفونش من عزمه وصرامته وقوة جأشه ما ظهر. فكانت بين الفريقين مكافحة عظيمة عامة النهار ، [وعند] المغرب [اخذ] الاذفونش في الصّدَرِ الى بلنسية وجدّ في اخلائها وخرج بجميع من كان فيها من الروم ، واضرمت النار في الجامع والقصر وبعض الدور ، وصدر الامير مزدلي الى بلنسية في شهر رجب فأنقذ الله بلنسية من يد الشرك وملكة الروم وطهرها وصرف اليها نور الاسلام ودين محمد عليه السلام بعد ثمانية أعوام وشهر ونصف وبعد نفوذ القدر السابق في علم الله تعالى ... وهلك من هلك بها ، جعل الله ذلك تمحيصاً لهم وتطهيراً بعزته (٢). ووليها في هلّ ذي الحجة القائد أبو محمد عبدالله بن فاطمة ، ثم استناب فيها ونهض الى سرقسطة فوافاها ثاني عيد النحر مع الف وخمسمائة فارس وذلك لما وصل ولد ابن هود من العدوة بكتاب من أمير المسلمين ، وبعد وصول هذا الكتاب توجه القايد ابو محمد عبدالله بن فاطمة اليها بجيش كثيف من الف وخمسمائة فارس فوفاه ثاني عيد النحر من السنة المؤرخة .

وفي هذه السنة اخذ امير المسلمين في الحركة من حضرته مراكش برسم الجواز الى الأندلس ... المرسوم بالانوار الجليلة فلما جاز ... ثم صدر الى اغرناطة [وعقد عليها] للقائد علي بن الحاج وجمع اعلام المرابطين والرؤساء

(١) هي Cullera وتقع الى الجنوب من بلنسية ولعل الأصوب أن يقال فيها « قليبرة » .

(٢) ذكر ابن بسام في الذخيرة (القسم الثالث ، الورقة : ٣٢) أن استرداد بلنسية كان في شهر رمضان سنة ٤٩٥ .

الأندلسيين في حال البيعة [لابنه عليّ] . ووجه احمد بن هود المقتدر بالله (١) ابنه عبد الملك المدعو عماد الدولة من روطة (٢) الى قرطبة بهدية جليلة منها اربعة عشر ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط وفرقها ليـلة عيد النحر في طبقات المرابطين ؛ [وفي ذلك الوقت عقد البيعة لولده علي بن يوسف] (٣) وحضر العهد (٤) عبد الملك ابن المستعين بن هود ، وكتبه ابو بكر بن القصيرة (٥) .

وفي هـذه السنة توفي ملك شنتمرية (٦) من ثغر الأندلس الملقب بذي الرياستين حسام الدولة (٧) وكانت رياستهم في هـذا القطر من سنة احدى واربعين واربعماية اولهم مؤيد الدولة هذيل بن خلف بن ازحن (٨) ثار بهـا ودام ملكه فيها الى ان مات : ثم قام بعده اخوه عبد الملك الى ان مات [ثم ولي ابنه هذيل] (٩) ثم ثار بعده ابنه ذو الرياستين هذا حسام الدولة وتمادى ملكه بها الى ان مات في هـذه السنة وولي بعده ابنه (١٠) مدة يسيرة وصار امره الى امر الامير يوسف .

---

(١) الصواب : المستعين بالله وهو حفيد المقتدر بالله ؛ وخبر هذه الهدية في أعمال الاعلام : ١٧٤ وفي الحلة ٢ : ٢٤٨ .

(٢) روطة (Rueda) من مدن الثغر الأعلى ، كانت تابعة لسرقسطة .

(٣) زيادة من أعمال الاعلام : ١٧٤ .

(٤) في المطبوعة : البيعة .

(٥) في الحلل الموشية نصّ هـذا العهد ، ويذكر أن الذي كتبه هو الوزير الفقيه أبو محمد ابن عبد الغفور (ص : ٦٣) .

(٦) هي شنتمرية الشرق او سهلة بني رزين Santa Maria de Albarracin وهي في كورة شنتبرية Santaver في الثغر الأوسط ، وتقع على أحد فروع نهر تاجه .

(٧) انظر ترجمة عبد الملك بن هذيل في الحلة السيراء ٢ : ١٠٨ وهو عند ابن الأبار يلقب بحسام الدولة .

(٨) في الحلة السيراء : بن خلف بن لب بن رزين .

(٩) زيادة من الحلة يصحّ بها السياق .

(١٠) سماه ابن الابار : يحيى ، قال : وعليه انقرض ملكهم .

وفي سنة سبع وتسعين واربعماية اخذ يوسف بن تاشفين في الحركة الى حضرة مراكش من بلاد الاندلس لما كمل امر البيعة لابنه علي وضبط احوالها وتقديم عمال للنظر في اشغال التحرك ، صار الى العدوة وأوعز الى ابي الحسن علي بن الحاج عامله على اغرناطة في النهوض الى شرق الاندلس واستحثه في السير ، فلحق به كتابه وهو على مقربة من الجزيرة الخضراء ... بامتثال امره ووصل علي بن الحاج الى بلنسية في شهر صفر . الامير يوسف في ... كتب اليه جوابه في محلة مضاربه واقام علي ابن الحاج ببلنسية الى شهر رمضان فورده ... الخبر عن منازلة اذفونش بن فرذلند مدينة سالم فتوجه بجملة وافرة من الخيل والرجال ... فلما احتل بقلعة ايوب استمد القايد الاعلى ابا محمد عبدالله بن فاطمة فبادر اليه ... تفاوض فاجتمع الرأي على غزو بلاد العدو فلحقا مدينة طليطلة من ... سرقسطة .. المحلة واتصل بالحل والترحال فوافوا مدينة طلبيرة فخرج منها ... والحرب تدور على الدوام وبأحرة أحلت .. الامير علي بن الحاج رحمه الله ... فيه طرف المعترك ميتاً بدرعه وسلاحه ... ولا ضربة ... الى تطيلة فدفن في قبلي جامعها وانصرف...قاهراً ومالاً وافراً ، فاقتفى اثر ابيه وسلك سبيله في عضد الحق وانصاف المظلوم ... الظالم وأمن الخايف وسد الثغور ونكاية العدو فلم يرم السداد في اعماله ، والتوفيق في حسن اعماله ، وكان اخص الناس به ابو محمد عبدالله بن اسباط فجعله المترجم عن بيانه ، وأقامه في الاوصية مقام لسانه ، وناط به الآمال ، وأوطأ عقبَه جماهيرَ الرجال .

وفي سنة ثمان وتسعين شاع الخبر بالاندلس بمرض الامير يوسف واستيلاء الآلام عليه ، وخاض فيه اهل الدولة الذين يستنبطون الغوائل ، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق ، واتصلت الاخبار بالطاغية اذفونش على غير صورتها ، وجلبت لديه في غير معرضها ، وصوّرَ عنده ان بلاد المسلمين من الرجال قد خلت ، ومن الحماة وذوي النجدة قد تفرغت ، وظنّ انه من هذا الحادث قد اضطربت الامور ، وانحل نظام التدبير ، فخرج الاعداء في زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة

فتوغلوا في نظر اشبيلية حتى وصلوا الى موضع يعرف بقاطع ، فغنم من تلك القرى الغنائم الموفورة والاسلاب الكثيرة ، وخرج ابو محمد سير من اشبيلية وتحصن في حصن هنالك ، وتلاحقت به أجناده وامداده، وبقي هناك مرتقباً لورود ابي عبد الله ابن الحاج بعسكر اغرناطة الى ان استوفت العساكر فهرب جميع الكفرة وولوا امامهم فارين مهزومين ، وبلغ المسلمون الشفاء من القتل فيهم ، وكاد السيف يستأصلهم ويفنيهم ، وصحّ بعد هذا الفتح الجليل أن الذي قتل منهم الف وخمسمائة .

وفي هذه السنة تناهى القحط في بلاد الاندلس والعدوة حتى ايقن الناس بالهلاك .

وفي سنة تسع وتسعين تزيّدت بالامير يوسف علته التي قبض منها .

وفيها صدر الامير تميم عائداً من شرق الاندلس ووصل مراكش بسبب ذلك [١]

وفيها عزل موسى ابن الحاج عن اغرناطة ووليها ابو بكر بن ابراهيم اللمتوني .

وفيها قرىء باشبيلية كتاب نفذ من ولي العهد بتأخير القاضي ابن [منظور]

وفي هذه السنة خرجت سبعون قطعة من البحر الغربي وقصدت بيت المقدس فلما توسطت البحر [هبت] عليها ريح فرقتها واغرقتها فلم يرجع شيء منها وكفى الله المسلمين شرها .

وفيها ظهر نجم منظور الضوء طويل الذؤابة ... كأنها طيرة المجرة تمادى نحو ثلاثة اشهر .

وفي سنة خمسمائة استأثر الله امير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى وذلك يوم الاثنين مستهل شهر المحرم من السنة [٢] .

(١) يعني بسبب اشتداد المرض على أبيه .

(٢) في الحلل الموشية : ٦٧ « وقد مات في شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٠ » .

بعض اخباره على الجملة

... كان خائفاً لربه كتوماً لسره كثير الدعاء والاستخارة مقبلا على الصلاة ، [يأ كل من عمل][1] يده ... اكثر عقابه كان الاعتقال الطويل إلا من انتزى وشق العصا «فالسيف احسم لانتشار الداء» .

كنيته : ابو يعقوب .

ديناره تبر في احدى صفحتيه : « لا إله الا الله محمد رسول الله . » وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » . وفي الداير : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » الآية . وفي الصفحة الاخرى اسم امير المؤمنين العباسي .

عنوان كتبه : من امير المسلمين وناصر الدين الى فلان .

وكان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الامور اليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم ، وولع بالاختصار في ملبسه ، وما زال الى أن لقي الله مجدّاً في الامور ملقناً للصواب فيها مستصحباً حال الجدّ مؤدياً الى الرعية حقها من الذب عنها والغلظة على عدوها وافاضة للأمن والعدل فيها، ويرى صور الامور على حقيقتها ، وكان معظماً مهوباً لا يخلد الى راتبة ولا يسكن الى دعة .

نسبه : هو يوسف بن تاشفين بن ترجوت بن ورتانطن بن منصور بن مصالة ابن امينة ابن واتمالي الصنهاجي ، وقد ذكر الهمداني في كتاب «الا كليل» ان صنهاجة من ولد عبد شمس بن وايل بن حمير ، واجتمعت الروايات ان صنهاجة من حمير .

---

(١) زيادة من الحلل .

وطوى الدهر امير المسلمين يوسف فاسترجع ما وهب ، وقبض وهو على أوله في الحزم والعزم لنصر الدين واظهار الكلمة وعضد الاسلام ، وقد امتدحه الشعراء في حركاته وغزواته وصدوره وورده فأجزل لهم العطاء ، ورثاه جماعة منهم ابو بكر بن سوار[1] من جملة مراثيه وانشدها على قبره :

ملك الملوك وما تركتَ لعاملٍ   عمـلاً من التقوى يشاركُ فيه
يا يوسفٌ ما أنت الا يوسف   والكلُّ يعقوبٌ بما نطويه
اسمع أميرَ المؤمنين وناصرَ الـ   ـدين الذي بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التي   لم ترضَ فيها غيرَ ما يرضيه
اما مساعيك الكرام فانها   خرجت عن التكييف (٢) والتشبيه
في كل عام غزوة مبرورةٌ   تردي عديدَ الروم او تفنيه
تصل الجهاد الى الجهاد موفقاً   حتم القضاءِ بكلٍّ ما تقضيه
ونجيُّ ما دبرته كنجيّه   فكأنّ كل مغيّبٍ تدريه
متواضعاً لله تظهر دينه   في كل ما تبديه أو تخفيه
ولقد ملكتَ بحقك الدنيا وكم   ملك الملوكُ الأمر بالتمويه
لو رامت الأيامُ ان تحصي الذي   فعلت سيوفك لم تكن تحصيه
انا لمفجوعون منك بواحد   جمعت خصال الخلق أجمع فيه
واذا سمعت حمامةً في أيكةٍ   تبكي الهديلَ فانها ترثيه
ومضى قد استرعى رعيّته ابنَه   فأقام فيهم حقٌّ مسترعيه
واذا هزبر الغاب ضرّى شبله   في الغاب كان الشبل شبلَ أبيه
واذا (علّي) كان وارث ملكه   فالسهم مُلقىً في يَدَيْ باريه (٣)

---

(١) محمد بن سوار الاشبوني ابو بكر ، أسره الروم بمدينة قورية مدة من الزمن ثم فداه أحد بني عشرة أعيان سلا فأكثر من مدائحه فيهم (الذخيرة القسم الثاني : ٣١١ والمغرب ١ : ٤١١) وقصيدته في رثاء يوسف وردت في الذخيرة : ٣٢٢ .

(٢) الذخيرة : التحديد .

(٣) هذا البيت لم يرد في الذخيرة

ذكر دولة امير المسلمين علي بن يوسف

ولما استأثر الله بامير المسلمين يوسف بن تاشفين وصى الامر الى ولده ولي عهده علي أمير المسلمين ، فاضطلع أبرع اضطلاع ، وقام احمد مقام ، وألبسه الله المهابة ، وقذف له في القلوب المحبة ، فاجتمعت عليه الامة ،واتفقت الكلمة ، وبعد مواراة ابيه خرج ويده في يد اخيه ابى الطاهر تميم [على] قبايل المرابطين والمصموديين وغيرهم من زعماء القبايل ورؤسائهم ، فنعياه اليهم ، وجدد ابو الطاهر بيعة اخيه واخذ الحاضرين بذلك فاستتب الامر ، وبادر الامير ابو الطاهر الى مكناسة بالجيش والامير يحيى ابن ابي بكر بفاس والامير مزدلي بتلمسان ، وكان الامير سير ابن ابي بكر في طاعة اشبيلية ، ولحق الامير ابو بكر ابن ابراهيم بغرناطة في ربيع الاول منهذه السنة . وقصده زعماء الاقطار مهنئة وامتدحته الشعراء فوهب الهبات لهم ؛ وكان خروجه من غرناطة في رجب العام المذكور .

ذكر حركة امير المسلمين علي بن يوسف من مراكش الى الاندلس

وتحرك امير المسلمين علي بن يوسف من حضرة مراكش مع جيوش المرابطين والمصموديين والجنود والحشود يوم الجواز الى بلاد الاندلس لتفقد اهلها وسد خللها ، وأغذّ السير الى ان وصل الى مدينة سبتة وجاز البحر منها الىالجزيرة الخضراء ، فبادر اليه قضاة الاندلس وفقهاؤها وزعماؤها ورؤساؤها وادباؤها وشعراؤها ، فامتدحتهالشعراء فأجزل لهم العطاء وقضىلمن كانذا ارب اربه، وسنّى لكل ذي مطلب مطلبه ، فولّى اخاه ابا الطاهر تميماً أغرناطة ، وولّى ابا عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني قرطبة ، وبقي محمد بن الحاج

تحت الحمول [1] الى ان ولاه بعد ذلك مدينة فاس ثم نقله الى بلنسية في سنة ثلاث . قال ابن الصيرفي : وجرت في هذا العام أحداث ، ذكر في كتاب « تقصّي الأنباء في سياسة الرؤساء » : وفي هذا العام انبرى ابو العلاء بن زهر [2] الى مطالبة القاضي ابن منظور باشبيلية وخبر ذلك ان ابن زهر اعتلّ فذكر ذلك للقاضي فقال : « وطبيب ماهر يمرض !! » فنهيَ ذلك الى الوزير أبي العلاء ابن زهر فحرّك منه وقال :

ان ابن منظور تعجب هازلاً ... لما مرضتُ فقلت : يعثر من مشى
قد كان جالينوس يمرض دائماً [3] ... فمن الفقيه [4] المرتضى أكل الرشا

فأنفذ امير المسلمين عليّ اليه كتاب عزلته .

ولما كملت اشغال حاز بها الاندلاس [؟] ... امورها وعمت البيعة دانيها وقاصيها صدر الأمير علي بن يوسف الى سبتة وادي مشيه في ... الى حضرته مراكش .

وفي سنة احدى وخمسمائة ورد الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بغرناطة والياً عليها فاطمأنت النفوس وهجدت العيون ... بملكته وظهر به جمال دولته ، ونظر الأمير أبو الطاهر في أسباب الغزو وأحسن الى الجند وخرج منسلخ شعبان المكرم من العام ، فلما احتل الجيش مدينة جيان تلوم بها الامير ابو الطاهر أياماً حتى وفدت عليه الجيوش والعساكر من قرطبة وغيرها

---

(١) قد وضح ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي : ١٣٣ سبب هذا الحمول ، فذكر أن محمد بن الحاج كان والياً على قرطبة ، فلما ولي علي بن يوسف الامارة بعد أبيه رام ابن الحاج القيام عليه ودفع إمرته وتلكأ في بيعته ، ومالأه الملأ من أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها سنة ٥٠٠ ،فقبض عليه ونكب وفسد تدبيره ثم رضي عنه علي بن يوسف وولاه مدينة فاس وأعمالها.

(٢) هو أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، حظي في أيام المرابطين وكان قد اشتغل بالطبّ منذ أيام المعتضد حتى أصبح من البارزين فيه (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٤)

(٣) ابن أبي أصيبعة : يمرض دهره .

(٤) في المطبوعة : فمن الامام .

واستقبل على حصن أُقليش [1]، فاضطربت المحلات بازائه وانتشرت الحروب عليه الى ان دخله عنوة وامتنع اهـــله في قصبته والحروب محدقة به ، وفي خلال ذلك وصل اليه ولد اذفونش شانجه - من زوج المأمون . التي كانت تنصرت [2] - بنحو سبعة آلاف فارس فكانت بينه وبين جيوش المسلمين حروب يطول ذكرها كانت الدائرة فيها على الروم ، مات فيها شانجه بن الفنش أخزاهما الله، ورجع الامير أبو الطاهر الى اغرناطة . قال ابن الصيرفي: فكان ذلك دليلَ اليمن والبركة بولاية علي بن يوسف في اول دولته وكانت الوقعة على الروم وموت شانجه المذكور في ... شوال . وفي آخر هذا العام مات أذفونش لعنه الله تعالى .

بعض اخبار الاذفونش ملك قشتالة اخزاه الله

قال الراوية : هلك طاغية الروم الاعظم اذفونش بن فرذلند بطليطلة في شهر ذي الحجة من عام اثنين وخمسماية وكان ملكه نيفاً على خمسين سنة بأشهر وهو اذفونش بن فرذلند بن غرسية بن شانجه بركه [3] وكان لغرسية بن شانجهبركه ثلاثة اولاد غرسية وفرذلند وردمير قال ابو بكر بن عبد الرحمن: كان غرسية اشجع اخوته وقتله اخوه فرذلند في حرب كان بينهما وترك ابنين قام احدهما بالملك وهو شانجه وخرج الآخر الى بلاد الاسلام وهو الفنت الذي احرق جامع البيرة وقتل لعنه الله بروطة بسبب يطول شرحه هنا ويقولون في اسم الفنت [4] الهنت يصرفون الفاء هاء في النطق ، ومعناه عندهم ابن الملك ،

---

(١) أقليش (Ucles) في كورة شنتبرية ؛ وعندها المعركة المشهورة التي انتصر فيهـــا أبو الطاهر تميم سنة ٥٠٢ ، انظر تفصيل الخبر عنها في روض القرطاس : ١١٨ ونظم الجمان : ٥ وما بعدها ، ومقالة للاستاذ هويسي ميراندا عن المعركة بمجلة تطوان ١٩٥٧ .

(٢) المأمون ابن المعتمد بن عباد وزوجه هي زائدة (انظر الاسلام في المغرب والاندلس) .

(٣) Sancho Abarca

(٤) Infante

كما عند الفرس سابور ؛ وهلك غرسية بن شانجه بركه وقد قسم البلاد بين بنيه واختص فرذلند وردمير بملكه مناصفة، ولم يكن لردمير من الولد الا شانجه: فلما قتله المقتدر بالله بن هود في الحرب التي كانت بينهما قام بالملك بعده شانجة وحده فلـــا هلك ترك ابنين بطرة واذفونش المصروع على أفراغه بما افضى الى هلكه .

ولمـــا اشرف فرذلند على الهلك ايضاً قسم بلاده [1] بين اولاده شانجة واذفونش وغرسية فخص شانجة بملك برغوش [2] وقشتالة وما حولها من المدن وخص اذفونش بليون وما حولها من المدن وخص غرسية بغليسية وبرتغـال ففسد ما بين شانجة واذفونش وكانت بينهما حرب أتت على أكبر رجالهما ، ثم ظفر شانجة بأخيه اذفونش فأسره وحبسه مصفدا عنده في قشتالة مدة ثم حل اعتقاله ونفاه عن بلاده فلحق بالمأمون بن ذي النون بطليطلة وبقي عنده مدة كانت سبباً لتطلعه على احوالها حتى استولى بعد ذلك عليها وقد تقدم ذكره فيه . وكانت لشانجة واذفونش أخت يقال لها أرّاكة [3] تميل الى أخيهـــا اذفونش فداخلت بعض رجال اخيها شانجه على قتله ، وخرج شانجة يتصيد في [لمة] من خيـــله وفي جملته الداخل في قتله ، وتسابقت تلك الخيل الجري فأجرى ذلك الفارس وبيده رمح معدة ، فلما قرب من شانجه طعنه فقتله ، ومر على غلوائه الى حصن سمورة وبه أرّاكة اختهما فاعتصم بهـــا ... الدعوة بالاذفونش وانفـــذ فيه ، فلحق للحين ، وانفرد بالملك . فلما استوسق امره قتل قاتل اخيه وقال بلغته: «عمل جيد وعادة سوء». ويذكر ان اذفونش بن فرذلند لعنه الله زنى بأخته أرّاكة فجمع بين النصرانية والمجوسيـــة ثم طلب الى أحبـــار دينه المغفرة مما واقعه فحملوه على قصد الكنائس الفاضلة والتعبد – أخزاهم الله ولعنهم – ؛ ثم فسد مـــا بين اذفونش وغرسية فكانت بينهما

---

(١) انظر أعمال الأعلام : ٣٢٩ وما بعدها .

(٢) Burgos

(٣) Urraca

حرب أسر فيها اذفونش لأخيه غرسية فحبسه ثم دس عليه من قتله . في محبسه وانفرد في مملكته الى ان توفي هذه السنة المؤرخة .

وفي هذه السنة فسد صلح المستعين بالله احمد بن هود مع الروم وعادت الفتنة بينه وبينهم على ما اذكر بعضه .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة تحرك امير المسلمين علي بن يوسف من مراكش الى الاندلس برسم الغزو والجهاد وفتح مدينة طلبيرة [1] وذلك أنه لما تمهدت المملكة لعلي بن يوسف ببلاد المغرب تحرك الى الاندلس فأجاز البحر ويمم أغرناطة وتلوّم بها ريثما اجازت العساكر العدوية والحشود والمطوعة وتأهبت الجيوش الاندلسية ، ثم تحرك الى قرطبة وأقام بها أياماً ومشى البريح باعياد، ولحقته الجيوش والاجناد ، وتحرك منها الى مدينة طلبيرة فنزل عليها ثم دخلها ووقع النهب والسبي فيها واعتصم الروم في قصبتها وأجارهم الليل فرموا بأنفسهم في النهر وتسربوا بين المحلات فأفلتوا وامتلأت ايدي المسلمين بالسقط والثياب والماشية والاسلحة ، وطهر الجامع وردّ على الهيئة المسلمة ورجع به حرامه واقامة الصلوات ومحا الله منه الكفر ، وندب لها امير المسلمين الخيل والرجال والرماة وقوّد عليهم احد المرابطين ورحل الامير عليّ عن طلبيرة ، فاستقبل طليطلة فأناخت محلته عليها ثلاثة ايام ... الضيقة... وساءت ظنون اهلها مع ما هي عليه طليطلة من الحصانة والمنعة [ودامت] عليها الحرب يوم الخميس والجمعة والسبت وأخذت الجيوش في القفول يوم الجمعة وانقضى امر هذه الحركة في اربعين يوماً فصدر علي بن يوسف وقد دوخ تلك البلاد ولم يعهد في ذلك الوقت مثل هذه الغزوة قوة وظهوراً وعدة ووفوراً ونكاية في العدو وبقي رعبه في الروم .

---

(١) عين ابن القطان تاريخ هذه المعركة، اذ ذكر أن علياً بلغ طلبيرة يوم الخميس الثالث عشر من المحرم سنة ٥٠٣ أي ١٢ أغسطس سنة ١١٠٩ (انظر ص ١٣) .

ومن أخبار المستعين ابن هود في هذه السنة

قال الراوية : نزل المستعين أحمد بن هود حصن روطة الى مدينة سرقسطة فجدد البيعة عن اهلها لنفسه ولابنه بولاية عهده ، فلما كمل له من تجديد البيعة أمله عزم على الغزو على بلاد الروم المجاورين له ، فجمع وحشد وسار في جيش دَهْم ، وتحرك في شهر جمادى الآخرة فاجتاز بمدينة تطيلة ودخل منها على أرنبة [١] فغلب على أرباضها ، واعتصم اهلها منه بكنيسة منيعـــة [٢] ، ثم صالحهم [٣] على مال يؤدونه اليه [٤] أخذ به رهائن منهم ، ثم انصرف قافلا عنهم ، وشن في صدره الغارات على من بذلك الصقع من الروم وهدم وحرق وقتل وسبى وعاد الى بلاده فلما شارف بلاد الاسلام لحقتـــه خيل الروم المتألفة من البلاد في أول يوم من رجب الفرد [٥] فاجتلدوا أحرّ جلد ، وصبر الفريقان وطال الضرب ، واستشهـــد المستعين بن هود وانفض الجمع والحم السيف ... على كثير من المسلمين ، كرمهم الله بالشهادة اجمعين .

وولي عبدالملك الملقب عمادالدولة بعد استشهاد أبيه وبايعه الناس بسرقسطة بعد ما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم ؛ واتصل بعبد الله بن فاطمة موت المستعين فطمع في سرقسطة وتحرك اليها وذلك على نحو شهر واحد من الوقعة ، فلما انتهى الى مقربة منها وجه اليه اهلها ان ينصرف عنهم ولا يبدأ الفتنة مع المبايع له خشية استصراخه بالروم فيعود الحرب على الأول ثم بعد ذلك لم يفِ عمادالدولة ابن المستعين بالشرط الذي ألزمه نفسه من طرح الروم وتركهم ، فعزم على مداخلتهم ، وفهم منه ذلك أهل سرقسطة فاستدعوا

(١) كذا ولعل صوابه « أرنيط » كما هو في أعمال الاعلام .

(٢) في اعمال الاعلام : عتيقة .

(٣) في المطبوعة : صلح .

(٤) في المطبوعة يوردرن . والتصويب عن اعمال الاعلام .

(٥) من عام ٥٠٣ - ٢٤ يناير ١١١٠

الأمير محمد بن الحاج صاحب بلنسية من قبل امير المرابطين معوضاً به من الأمير عبدالله ابن فاطمة الوالي على غرناطة ، فوافاها صبيحة يوم السبت العاشر من ذي القعدة ففتحت له الأبواب ، ففتحها واضطربت المحلة في الشريعة منها ، ودخل المرابطون سرقسطة وتقدم اهلها لمحمد بن الحاج ، فدخل الجعفرية وصار القصر المذكور في ملكه تحت ثقافه ، فجرى ابن المستعين على سيرة ابيه وصانع اذفونش ابن ردمير فاستجابه ووافاه بحصن تطيلة ، ومحمد بن الحاج بالجيش في تلك الناحية . ثم انصرف الى سرقسطة وتقدم ابن ردمير حتى كان منها على فرسخين فابتدر ابن الحاج الى حرمه وأمر الناسَ بالخروج اليه للمحربة ، ورتب الناس على هيئة الأهبة والرتبة عامة يومهم ، وبآخرهِ أخلوا مراكزهم وتسللوا الى المدينة ، فظهر الخلل والتسلل ، وانتهز ابن ردمير الفرصة وقسم جيشه فرقتين وصدمت احداها ابن الحاج وصدمت الاخرى ابنه ابا يحيى فتفرق الناس عنه واستشهد هناك [1] وفقد في تلك الواقعة جملة من المسلمين وذلك عشية يوم الاحد منتصف شهر ذي الحجة من السنة المؤرخة .

تلخيص التعريف بتاريخ من ملك سرقسطة وبعض اخبار البلاد الشرقية من بني هود رحمهم الله الى هذه السنة

كان استيلاء المستعين سليمان بن هود الجذامي على طاعة منذر بن يحيى وتغلبه على شرق الاندلس في ذي الحجة من سنة ست وثلاثين واربعمائة وكان هذا المستعين صاحب مدينة لاردة وبَلغَي [2] واجتمع ذلك الثغر كله سرقسطة وتطيلة وقلعة ايوب ودروقة ووشقة وبربشتر ولاردة وبلغي ومدينة سالم ووادي الحجارة الى ان توفي في سنة ثمان وثلاثين واربعمائة . فولى ابنه المقتدر

---

(١) يجب ان نفهم هنا ان بن عذاري يشير الى استشهاد ابي يحيى لا محمد بن الحاج إذ أنه سيعود الى ذكر محمد بن الحاج في الفقرة التالية في حوادث سنة ٥٠٤ وما بعدها .

(٢) في الأصل : وبلقى ، وهي Balaguer وتكتب في المصادر الاخرى مضبوطة بالغين.

بالله احمد بن سليمان بن هود في سنة ثمان المذكورة ، وتوفي سنة اربع وسبعين واربعمائة وكانت مدة ولايته ستاً وثلاثين سنة ، وولي ابنه المؤتمن سنة اربع المذكورة،وتوفي سنة ثمان وسبعين واربعمائة وكانت مدته أربعة أعوام . وولى بعده المستعين بن هود المقتول في ملحمة يوم الاثنين مستهل رجب من السنة ثلاث وخمسمائة المؤرخة . وولي عماد الدولة احمد بن احمد المستعين ابن المؤتمن بن احمد المقتدر بن سليمان المستعين بالله بن هود الجذامي في غرة رجب من هذه السنة واخرجه اهل سرقسطة كما تقدم ذكره في يوم السبت العاشر من ذي القعدة ودخلها عامل علي بن يوسف .

وفي سنة اربع وخمسمائة استقر محمد بن الحاج بسرقسطة وابن ردمير يساجله الحرب والظهور عليه وعبد الملك بن المستعين معه في جيوش تعضل بها الارض، فنزل على نحو فرسخ من المدينة ومحمد بن الحاج يناوشه الحرب صباحاً ومساء الى ان لحق ابو عبدالله بن عايشة الوالي على مرسية من قبل امير المسلمين علي بن يوسف بعسكرية مرسية والطاغية ابن ردمير صادر الى بلاده والعساكر المسلمة في أثره ، ولم تزل بعد ذلك الحرب متصلة والمضارب مترددة وغزوات محمد بن الحاج متوالية الى ان توجه علي بن كنفاط اللمتوني بعسكر من المرابطين في جهة قلعة أيوب فنازل حصناً من حصون ابن المستعين وضيق عليه وأخذ بمخنقه ، فلما نال منه الضغطة استصرخ اهله بابن المستعين صاحبهم ، فوجه اليه مدداً من الروم شفى أمره حتى دخل الحصن وخرج منه ليلاً على المحلة والناس على طمأنينة فتغلب العدو على المحلة وأسر أميرهم ابن كنفاط ، وصدر المدد الرومي به الى روطة فبقي في اعتقال ابن المستعين مدة ثم خلّى سبيله فكان مهادنة ثم كانت حرب ، والحرب سجال والنفوس آجال .

وفي هذه السنة خرج الامير ابو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين عن اغرناطة وولي مدينة تلمسان واستقر بها .

وفي سنة خمس وخمسمائة ولى أمير المسلمين علي بن يوسف الأمير مزدلي على مدينة قرطبة واغرناطة والمرية وما انتظم معها من الحصون والقرى .

وفي شهر صفر منها قام المنصور بن سير بن مسلمة الشهير بابن الأفطس من أرض النصرانية الى مدينة اشبيلية فصمم منها الى حضرة امير المسلمين فكانت له منزلة لطيفة ومكانة رفيعة .

وفيها خرج عماد الدولة من مدينة روطة برسم محاربة سرقسطة فخرج اليه واليها محمد بن الحاج بعسكرها فحاربه ثم بعد منه .

وفي سنة ست وخمسمائة غـزا الامير مزدلي بعساكره ومن انضاف اليه قاعدة وادي الحجارة بأرض الروم واكتسح ما حولها وضيق عليها ثم صدر الى قرطبة بغنائمه .

وفيها أغري بالامير مزدلي عند امير المسلمين فاقتضى نظره ايفاد مشيخته من المرابطين لثقاف ... ما الى نظر الامير مزدلي من بلاد الاندلس وكان لأبي علي بن...حثيث المسعى والقدح المعلى ، واتصل النبأ بهفبادر الى امير المسلمين ولما اجتمع به جلا عن نفسه فارتفع الظن وحصحص الحق ... الى طاعته على أكرم حال وأتم آمال .

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الامير سير بن ابي بكر الوالي على مدينة اشبيلية بتقديم امير المسلمين يوسف بن تاشفين، وذلك في شهر رجب من عام اربعة وثمانين،وكانت وفاته في شهر جمادى الاولى من هذه السنة بموضع يعرف باغرنات على مقربة من اشبيلية، خرج زافاً لنفسه فاطمة الى امير المسلمين علي ابن يوسف ومشيعاً لزوجه حواء بنت تاشفين؛وكان هذا تاشفين أخو يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه لانه لما مات تاشفين والد يوسف دخل مكانه أخوه علي. فخرجت حواء واختها من اشبيلية فلم يعهد مثل ذلك اليوم لهواً وكثرة ونعماً، خرج فيه الجم الغفير الى مضارب المحلة بعين العلو فلما جن الليل نزل بالامير سير بن ابي بكر بن تاشفين مغص تزيد عليه حتى قضى رحمه الله عند انصداع

الفجر فشهد جنازته بشر عظيم (١).

وكانت هذه الحرة حواء (٢) اديبة شاعرة جليلة ماهرة : اخبر ابو عبدالله محمد بن سعيد الخزرجي في كتابه ، قال : حدثني ابو محمد بن جلون عن شيخه ابي عبد الله بن زرقون وكان شيخه مالك بن وهيب قال:أمرت الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتبة والشعراء كانت تحاضرهم فيه وكانت ذات نباهة وخطر فاجتمع يوما في ذلك المجلس جماعة منهم ابن القصيرة وابن المرخي ، وهذا لقب له لأنه يقال كان له فتور على فصاحته ، وحضر غيرهما فلما غصّ المجلس اقبلت الحرة تريدهم وهم يتحادثون ويأخذون في الشعر ، وكان ابن المرخي قد قال صدر بيت وهو « انا للبدر أخ » ولم يجزه احد منهم ، إذ أقبلت الحرة فسلمت عليهم وبادرها ابن المرخي وقال لها : «حياك الله يا قمري ويا زهري » فقالت : « وصفتني والله بآفل وذابل » ففرح بفطنتها فقالت له « فيم كنتم » قال لها : « كنا قد قلنا صدر بيت ولم يقدر احد على عجزه » فقالت : « انشدنيه » فقال : « انا للبدر أخُ » فقالت على البديهة : « على ذا سنخ » (؟) فتعجب الحاضرون من براعتها .

وفي هذه السنة خرج الامير مزدلي من حضرة مراكش الى الاندلس وولاه علي بن يوسف على مدينة قرطبة واغرناطة فاجاز البحر للاندلس الى مدينة اشبيلية فاستمد ... الأمير سير بن ابي بكر اللمتوني فأمدّه بعسكر ضخم من المرابطين والحشم وغيرهم ، وانضم اليهم عسكر قرطبة واغرناطة وملة من العدوة ولفيف من المطوعة خيلاً ورجلاً فعظم الجيش ، وأمّ به الامير مزدلي ارض طليطلة فدوخها واكتسح به أوديتها وأبلغ في نكايتها وصدر الى قرطبة

(١) كان سير بن أبي بكر من أشهر قواد المرابطين ، وهو الذي احتل اشبيلية من بني عباد ، وفتح بعدها قرمونة ولبلة ، وشهد الحصار على حصن لييط ثم أزال دولة بني الأفطس واستولى على بطليوس سنة ٤٨٧ وظل والياً على اشبيلية مدة سبع وعشرين سنة .

(٢) للأعمى التطيلي الشاعر الوشاح قصائد في مدح الحرة حواء زوجة سير بن أبي بكر (انظر ديوانه) وقد ترجم لها القاضي ابن عبد الملك في القسم الخاص بالنساء من الذيل والتكملة .

ظافراً ظاهراً على عدوه (١)

وفي هذه السنة خرج لروم الارض الكبيرة نحو خمس مائة قطعـــة تحمل مائة الف مقاتل فيهم الف وخمسمائة فارس وخمسون الفاً من الرماة فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية اغرقتهم فلم تبق منهم باقية وأتت مع ذلك مراكب الحاج وجمله مشحونة بالأطعمة .

وفي هذه السنة صرف القاضي ابو مروان الباجي عن قضاء اشبيلية وقدم ابو عبدالله بن داود ، ثم نقل الى فاس، وولي القضـــاء ابو مروان الباجي ثم صرف ، وولي ابو محمد عبدالله بن سمجون فنقل الى غرناطة ، وولي بعـــده ابو القاسم بن ورد ثم صرف وولي بعده الفقيه الخطيب المقري [ابو الحسن] شريح بن شريح ثم صرف ، وولي الفقيـــه ابو بكر بن العربي — رحمهم الله اجمعين - وكانت ولاية ابن العربي المتأخر منهم في سنة ثمان وعشرين وخمسماية.

قال ابن حمادة : وكان يوسف بن تاشفين أمر القاضي محمد بن عيسى ببنيان جامع سبتة وزاد فيه حتى أشرف على البحر ، وكان بنيانه عام احد وتسعين وقبل بناء الجامع بأعوام أمر يوسف بن تاشفين ببناء سور الميناء السفلي بسبتة على يد القاضي ابراهيم بن احمد

وقام على يوسف بن تاشفين في هذه السنة رجل يعرف بابن الزنر بجاري وادعى انه ابن معنصر الزناتي الذي كان صاحب فاس ببلاد غمـارة ، فتوجه اليه يوسف وقتل خلقاً من أصحابه ثم اعطى غمارة مالاً فغدروه وأتوا اليه برأسه . وقام عليه ايضاً ماخوخ الزناتي بناحية تلمسان واختط بلداً لنفسه فخرج اليه يوسف وفرّ امامه وخرج من بلاده .

---

(١) تذكر المصادر الاسبانية انه فتح في هذه الوقعة حصن « اوريخا » (انظر مجلة تطوان ١٩٥٨ : ١٦٢) .

ذكر حرق الاحياء وما قال ابو حامد حين بلغه ذلك

قال ابن القطان في نظم الجمان [1] : أمر علي بن يوسف باجماع قاضي قرطبة ابن حمدين وفقهائها على حرق كتاب الأحياء فأحرق على الباب الغربي من رحبة المسجد بجلوده بعد اشباعه زيتاً بمحضر جماعة من اعيان الناس ووجه الى جميع بلاده يأمر باحراقه وتوالى الاحراق على ما اشتري منه ببلاد الغرب في ذلك الوقت فكان إحراقه له سبباً لزوال ملكهم وانتشار سلكهم، وكان المتلقب بالمهدي في بلاد المشرق يومئذ، فذكر ابن القطان في السفر الثالث عشر من كتاب نظم الجمان : ورحل المهدي من بلاد اقصى المغرب الى الاندلس في سنة خمسمائة فدخل قرطبة ثم وصل الى المرية فدخل في مركب الى الشرق فغاب فيه الى ان وصل مراكش سنة اربع عشرة. وذكر ابن القطان ايضاً عن عبدالله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس من اثبت في مدرسة ابي حامد فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف ودخل للمدرسة وحياها بالركعتين ثم دخل الى الشيخ أبي حامد فسلم عليه فقال : « ممن الرجل » ؟ فقال : « من أهل المغرب الأقصى » . فقال له : « دخلت قرطبة » ؟ قال: « نعم » . قال : « فما فعل فقهاؤها »؟ قال: «في خير». قال: «هل انتهى اليهم كتاب الاحياء » ؟قال: نعم. قال: «فماذا

---

(١) انظر ص : ١٤ وما بعدها ، وقصة حرق كتاب الاحياء وردت في الحلل : ٨٥ ، وهناك رسالة صادرة عن تاشفين بن علي الى امير بلنسية يحيى بن علي بن الحاج والفقيه القاضي ابي محمد بن جحاف تاريخها سنة ٥٣٨ وقد جاء فيها : « ومتى عثرتم على كتاب بدعة او صاحب بدعة وخاصة وفقكم الله كتب أبي حامد الغزالي فليتتبع أثرها وليقطع بالحرق المتتابع خبرها » (نصوص سياسية ـ مجلة المعهد ٣ : ١١٣) وهذا تاريخ متأخر ، ولكن وفاة ابن حمدين كانت سنة ٥٠٨ ، فاذا صحّ ذلك فلا بد أن يكون الامر بالحرق قد صدر أولاً أيام علي بن يوسف . وقد ذكر ابن الابار (المعجم : ٢٧١ ـ ٢٧٢) أن أبا الحسن البرجي استنكر حرقها وأفتى بتأديب من يفعل ذلك ، وأبو الحسن هذا توفي سنة ٥٠٩ .

قالوا فيه » ؟ فلزم الرجل الصمت حياءً منه فعزم عليه ليقولن ما طرأ فأخبره باحراقه وبالقصة كما جرت . قال : فتغير وجه الشيخ ابي حامد ومد يده الى الدعاء والطلبة يؤمنون فقال : « اللهم مزّق ملكهم كما مزّقوه واذهب دعوتهم كما حرقوه » فقام المهدي فقال : « ايها الامام ادع الله تعالى ان يجعل ذلك على يدي » فتغافل عنه ابو حامد فلما كان بعد وقت إذا بشيخ آخر على شكل الاول فقال له ابو حامد فاخبره بالخبر المتقدم فتغير ودعا بمثل دعائه الاول فقال له المهدي : « على يدي » فقال له : « على يديك » فقبل الله دعاءه .

وفي سنة ثمان وخمسمائة توفي الامير مزدلي [١] الوالي على قرطبة في شوال غازياً على مقربة من حصن مسطاسة صرف به الى قرطبة فوصل به يوم الاربعاء ثاني يوم وفاته وصلى عليه اثر صلاة العصر الفقيه القاضي ابو القاسم بن حمدين .

نسبه : هو مزدلي بن بوبلنكان بن حسن بن محمد بن تورجوت : قال ابن الصيرفي لم ازل اطلب نسب لمتونة حتى لم أجد منه الا ان الجد الذي تفترق منه افخادهم ترجوت .

وفي هذه السنة توفي الكاتب الجليل ابو بكر ابن القصيرة الذي اشتملت عليه الدول الثلاث العبادية المعتمدية والدولة اليوسفية وهذه الدولة العلوية بعد خطوب اصارته طريداً وقطعت منه وريداً [٢] .

وفي هذه السنة اتصل الخبر بأمير المسلمين علي بن يوسف وهو بحضرته

---

(١) كان ابو محمد مزدلي بن سولنكان (أو بوبلنكان أو ملنكان) من أكابر المرابطين ، وهو ابن عم امير المسلمين يوسف بن تاشفين وله جهود كبيرة في الدور الأول من التاريخ المرابطي قبل دخول الأندلس ، وهو الذي استولى على بلنسية ٤٩٤ ؛ ثم تولى تلمسان سنة ٤٩٧ وفي سنة ٥٠٠ عين على قرطبة وغرناطة والمرية وبقية أخباره في الاندلس أوردها ابن عذاري في الفقرات السابقة .

(٢) انظر هذه العبارة في ترجمة ابن القصيرة في قلائد العقيان : ١٠٤ .

مراكش عن وفاة الامـــير مزدلي فسد خللاً من مصابه ودفع [رزء] فقده بابنيه فولى الامير عبدالله بن مزدلي من مراكش وورد اغرناطة آخر ذي القعدة وتحرك الامير محمد فاحتل ايضاً بقرطبة واستقر بها وضبط امورها واحوالها.

وفي سنة تسع وخمس ماية ضرب العدو على نظر قرطبـة فخرج اليه محمد ابن مزدلي بعسكره وبادر في الاستعجال لأثره فلحق بالعدو ونشبت الحرب وصبر المسلمون فاستشهد محمد بن مزدلي والامـير محمد بن الحاج [1] والامـير ابو اسحق بن دانية والامير ابو بكر بن واسينوا ومـات [من] الامراء نحو الثمانين من وجوه المرابطين وجمـلة كبيرة من الحشم واهل الاندلس وذلك يوم الخميس مستهل صفر من السنة المؤرخة ، فكان مصاباً عظيماً وخطباً جسيماً واتصل الخبر بأمير المسلمين علي فولى قرطبة الامـير ابا بكر يحيى بن تاشفين وهو ابن عمه شقيق ابيه لأمه فنفذ اليها وقدم عليها؛ ولأيام من وصوله اكتسح العدو الاول صاحب الجولة على قرطبة فلحقه بجهة بياسة ولحق الصريخ بالامير عبدالله بن مزدلي صاحب اغرناطة فبادر في اثره وتتابع الجيش مغذاً فلحق به على مقربة فكانت للروم ايضاً ، واستشهد خلق من المسلـين كرمهم الله بالشهادة في اعلى عليين، وذلك يوم الاربعاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفي هذه السنة توفي محمد ابن الحاج صاحب سرقسطة شهيداً واتصل الخبر بأمير المسلمين فأنفذ ولاية سرقسطة للامير ابي بكر ابن ابي يحيى ابراهيم [2]

---

(١) ذكر ابن الابار (المعجم : ١٣٤) أن محمد بن الحاج استشهد بالمرضع المعروف بالبورت وتفسيره بالعربية « الباب » وذلك سنة ٥٠٨ ، فابن الأبار قد عرفنا اسم الوقعة التي هلك فيها كثير من المرابطين ولكنه يجعلها بجهة برشلونة .

(٢) هو المشهور بابن تيفلويت تزوج من أخت علي بن يوسف ، وولاه غرناطـة أولاً ثم سرقسطة ، ولأبن خفاجة فيه مدائح وكان وزيره الحكيم ابن باجة في سرقسطة ، وكان مثلاً في الجود والشجاعة ، استسلم في سرقسطة الى ترف الملك وانهمك في اللذات ، وتوفي سنة ٥١٠ (الاحاطة ١ : ٤١٢ - ٤١٧).

وكان مقيماً بها فتولى الامر فيه وأخذ بالعزم والحزم وثقف امور المملكة ونظر في مصالح الرعية .

وفي هذه السنة عوض عبدالله بن فاطمة عن ولاية فاس بولاية مدينة اشبيلية فاستقر بها في اول السنة المؤرخة .

وفي سنة عشر وخمس ماية تحرك الامير ابو بكر صاحب سرقسطة الى الغزو فقصد حصن روطة فأحرق وبالغ في النكاية ، ثم تحرك الى برجه وبها عماد الدولة بن المستعين بن هود فضيق عليها وبالغ في نكايتها حتى صالحه أهلها ورجع عنها الى مدينة سرقسطة .

وفي هذه السنة قدم امير المسلمين محمد بن ميمون قائد الاسطول البحري فكان له غزوات مشهورة وامور مذكورة .

وفي هذه السنة [1] أمر صاحب المهدية علي بن يحيى بن تميم بإعداد الأساطيل وعمارتها الى جزيرة جربة ، فساروا في جمادى الاولى وحاصرها وأخذوا بمخنق أهلها الى أن أقروا [2] بالطاعة له وسلموا لأمره ونزلوا على حكمه ، فانصرف الأسطول عنها وصلح أمر البحر في هذه السنة .

وفيها أرجف العوام بأنه سيكون في شهر رمضان خطب عظيم وحادث كبير وقطع على الدولة شديد وان السلطان سيموت فيه ، وفشا القول بذلك فيهم وانتشر ، فأكذب الله قولهم وعطل إرجافهم وعملت الشعراء في ذلك وقد تكون اصابتهم فيها ايضاً كما حدثنا ابو الصلت قال : حدثني ابو محمد عبدالعزيز ابن الامام احد خواص الامير ابي القاسم محمد بن عباد قال : كنت في عسكر الامير أبي القاسم عند وجهه مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب الأقصى الى لقاء اذفونش بن فرذلند ملك جليقية اول غزوة غزاها المرابطون بالاندلس ، وكان الناس ينزلون بنزوله ويرحلون برحيله

(١) انظر ابن ابي دينار : ٨٨ ورحلة التجاني : ١٢٥ .

(٢) في المطبوعة : أمروا .

تقريباً ورعياً لمكانه من السن وعظم القدر ووفور العدد وجودة الرأي، قال: فسمعنا طبوله تضرب وقيل امير المسلمين يتقدم الى العدو فأمر الأمير أبوالقاسم منجمه بتحقيق طالـــع الوقت والنظر فيه ، قال : فوجـده بحسب ما تقتضيه أصول هذه الصناعة دالاً على ان الدايرة تكون على المسلمين وان النصر والغلب للمشركين ، قال : فأشفق من ذلك وكره إعلام يوسف لنفاره من الاستدلال بالنجوم والعمل بها ، ولم يمكنه غير مساعدته والانتقال معه ، فبينما هو يحاول ذلك إذ خفتت الاصوات وهدأت الضجة وجاء من أخبر ان يوسف قد بدا له في الانتقال من هنا ، فلما كان بعد ساعات من ذلك اليوم بعينه عادت الاصوات وضربت الطبول ، فأمر الأمير ابو القاسم منجمه بأخذ طالع الوقت والنظر فيه فوجده اوفق طالع واسعد نصبة وأدلها على ان الظفر للمسلمين والدايرة للمشركين حسب ما جرى الأمر عليه ، قال فتعجب من ذلك ومن قوة سعادة يوسف ، وقال: وهذا من المصنوع لهم المعتنى بأمرهم الملثمين الى رشدهم الذين ... لهم التوفيق ويخدمهم [السعد] وذلك كله بمشيئة الله تعالى وسابق علمه ونافذ حكمه .

وكتب امير المسلمين علي بن يوسف من مراكش في هــذه السنة الى ابي محمد بن فاطمة كتاباً يحضه فيه على اقامة الحق اذكر الآن منه بعض فصول : « وقد رأينا والله ولي التوفيق، والهادي الى سواء الطريق،ان نجدد عهدنا الى عمالنا بالتزام احكام الحق وايثار اسباب الرفق لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل ، والله تعالى ييسرنا لما يرضيه في قول وعمل بقوته . وانت أعزك الله ممن يستغني باشارة التذكرة ، ويكتفي بلمحتها التبصرة ، لما تأوي اليه من السياسة والتجربة ، فاتخذ الحق امامك ، وملـّك يده زمامك واجر عليه في القوي والضعيف احكامك ، وارفع لدعوة المظلوم حجابكَ ، ولا تسدّ في وجه المضطر المظلومَ بابك ، ووطىء الرعية — حاطها الله — اكنافك ، وابذل لها انصافك ، واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها ، واطرح كلّ من يحيف عليه ويؤذيها ، ومن تثبت عليه من عمالك زيادة ، أو

خرق في أمرها عادة ، أو غيّر رسماً ، او بدل حكماً ، او أخـــذ لنفسه درهماً ظلماً ، فاعزله عن عمله وعاقبه في بدنه وألزمه ردّ ما أخذ تعدياً الى اهله ، واجعله نكالا لغيره ، حتى لا يقدم احد منهم على مثل فعله ، ان شاء الله تعالى ، وهو ولي تسديدك ، والمليّ بعضدك وتأييدك ، لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو من انشاء ابن الجد رحمه الله .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة تحرك امير المسلمـــين علي بن يوسف من حضرته مراكش الى بلاد الاندلس فأجاز البحر في أواخر محرم ويمم اشبيلية ريثما استتب امر الغزو ولحقت العساكر العدوية ، وتأهبت العساكر الاندلسية ولحقت من قرطبة لمة من الفقهاء والعلماء ولفيف من المجاهدين الزعمـــاء خيلا ورجلا ، وتأهب فقهاء اشبيلية ومجاهدوها ، واستوفت مطوعة غرناطـــة ومرتبوها ، ثم تحرك امير المسلمين بجميع العساكر من اشبيلية لغزو قلمورية [1] فحاصرها عشرين يوماً وضيق بها ثم انصرف عنها الى اشبيلية ومشى عبدالله ابن فاطمة والمنصور بن الافطس فقابلا اروادا في بـــلاد الروم ثم وردا الى اشبيلية واستاقا غنيمة عظيمة واسرى كثيرة وانصرف الناس الى بلادهم .

وأنفذ امير المسلمين علي بولاية ابن الوليد بن رشد خطة القضاء بقرطبة .
ومدح الشعراء لأمير المسلمين فمن ذلك لأبي العباس التطيلي [2] من قصيدة طويلة [3].

اركب اذا دارت رحاها وانزلِ   وقل اذا صم صداها وافعلِ
واقتصّ واستوفِ وهبْ فاحتفل   وابلغ بأدنى السعي أقصى الأمل
في عمر الشعر ؛ وسير المثـــل   ورتبة الوسطى من العقد العلي

---

(١) قلمورية أو قلمرية (Coimbra) وهي تعني حينئذ مملكة البرتغال ، ويقول صاحب الحلل الموشية ان علي بن يوسف فتحها يعني مدينة قلمرية ولكن يفهم من المصادر الاسبانيـة انه لم يستطع فتحها (تطوان « ١٩٥٨ » : ١٦٩) .

(٢) في المطبوعة : السلملي .

(٣) وردت هذه الارجوزة (لا القصيدة) في ديوان الأعمى التطيلي : ١٤٧ .

وجهك بالإحسان والحسن ملي وأنت للدنيا وللدين ولي
نيطت بك الآمال فاقطع وصل وهذه الدنيا فول واعزل

وفي هذه السنة ورد كتاب علي بن يوسف بولاية موسى بن حماد قضاء اغرناطة ، وفيها قدم باشبيلية لخطة القضاء ابو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني عن اصفاق من اهل بلده ، وفيها ولي محمد بن سعيد قضاء المرية .

وفيها فسد ما بين الزهري وابن زهر ، من الصداقة والصهر ، ورمى كل واحد صاحبه بقاصمة الظهر ، وبادر ابن زهر بمخاطبة علي بن يوسف فبادر اليه الزهري او ذلك بنفسه فتكلم في ابن زهر ملء فيه ، فأمر الزهري بسكنى مراكش ، ثم ورد ابن زهر بعد ذلك اليها وقد أظلم له النيّر وصعب عليه الليّن فتلقى من أمره ما أصدره ... ولم يسمح له بالوصول ، وكان قبل في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدولة ، يولى من قبله حاكم يحكم من حاشيته ، وصاحب المدينة من توليته ، وشهود البلد بحكمه ، وأمر المستخلص وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة اشبيلية ، والزهري في كل ذلك تلوه ومقتدٍ به ، فما راعوا حق الحرمة ، ولا أدوا شكر النعمة (١) .

ذكر ولاية أبي حفص عمر بن يوسف بن تاشفين

وفي هذه السنة صرف علي بن يوسف امير المسلمين الأمير أبا زكريا يحيى ابن علي عن اشبيلية ، وقدم اخاه أبا حفص والياً عليها ، ولما وصل الأمير ابو حفص الى اشبيلية برز اليه اهلها وخرج الأمير ابو مروان بن ابي العلاء زهر وكان أبوه ابو العلاء مستوطناً بفاس بالأمر ، فلما رآه أصغره وقصّر به ،

(١) أشار ابن عبد الملك الى ما حدث لابن زهر عبد الملك ايام الامير علي بن يوسف اشارة مقتضبة فقال : « وأدركته مطالبة عند ابي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين كانت سبب اعتقاله بسجن مراكش مدة » (الذيل ٥ : ١٩) .

وترجل صاحب المدينة خالصة ابن زهر فأخذ بيده مسلماً عليه ، فلما أعلم به أمر عليه فألقيت عمامته في عنقه وجر الى السجن ، فتقلقت نفوس الحاشية واستشعروا الشر . وجلس الأمير ابو حفص عشية ذلك اليوم في رحبة القصر فاستحضر من حاشية ابن زهر رجلين متلبسين بأمره فأمر بضرب اعناقهما وطيف برمحه على اسواق المدينة ، وذهب ادب ابن نهية العتاد واقبل أدب .. الحجاج ..؛ فتثقف البلد وتمهد وسكن الارجاف وفر المريب وجاء البريء ، واقبل الامير أبو حفص على تتبع هذه الحاشية وجعل غرضه الانتقام فيهم والتشريد لهم.

وفي هذه السنة نفذ عهد امير المسلمين علي بن يوسف الى ... محمد بن ميمون قايد الاسطول بتعمير جملته وغزو بلاد الروم بها فعمر خمسة وعشرين ... الدربة والنجدة فاستفتح مدينة قطرون وهي على مسافة يوم من مدينة . . فيها وامتنعت جملة من اهلها بقصبتها وهي وعرة المرتقى باسقة [١] الذرى فتعلقت ... واشرفوا على استفتاحها فحماها الليل ... دونها وصدر المسلمون الى الاسطول وعدها ... وخمسون رأساً من السبي وكثير . . وانصرف عنها القايد الى المرية .

قال . . أبو بكر [ونهض] علي بن يوسف الى مدينة اشبيلية . في الاقبال واثبت ابن روادة ريثما يلحق بقرطبة فلما تمهدت مدينة قرطبة واستلب امره أخذ في الصدر منها فلقي ابا الطاهر بجزيرة طريف مقبلا وصادرا ولحق ابو الطاهر اغرناطة في رمضان المعظم [٢] .

---

(١) في المطبوعة : فاسقتها .

(٢) كان الأمير أبو يحيى بن روادة (رواد في الحلل) قد ولي قرطبة ، فحدث بينه وبين أهلها ما أوجب قيامهم عليه وكانت فتنة، اضطرت علي بن يوسف إلى مخاطبتهم أولاً بالتقريع والتهديد، فلما لم يؤثر فيهم التهديد نهض اليهم سنة ٥١٥ (وهذا هو جوازه الرابع) وطال مقامه على قرطبة وتردد اليه أعيانها يسألونه الصفح ، فوقع الاتفاق على ان يؤدوا اليه مالاً عوضاً عما نهب من المرابطين (الحلل : ٧٠ — ٧١ وابن القطان : ٣٢) والنص المضطرب هنا يشير الى هذه الحادثة؛ وفي طريف التقى الاخوان علي وتميم .

وفي هذه السنة ولي مرسية ابو زكرياء يحيى بن غانية اللمتوني .

وفيها ولي قضاء المرية ابو الحسن بن اضحى .

وفيها نهض يناله الى شرق الاندلس فلم يزل بـــه الى جمادى الاولى من العـــام المقبل .

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة اغزى ابو عبد الله محمد بن ميمون قايـــد الاسطول علي بن يوسف مدينة نقوطرة [1] من عمـــل رجار صاحب صقلية ففتحها وسبى نساءها واطفالهـــا ... فيها وكان علي بن يحيى صاحب المهدية كتب كتابا الى رجار عندما وقع بينهما وحشة يضمن تهديده فيـــه بادخال الملثمين والعرب الى صقلية فلما كان من غزو ابي عبدالله ما كان لم يشك رجار صاحب صقلية ان السبب الباعث على ذلك والمحرك له صاحب المهدية، فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة [وأكثر] الاستنصار واستجاش وحشد كأنما في ذلك كله لامره ، فمنع [2] السفر الى سواحل المسلمين، والتأم له ما لم يعهد مثله [3].

وفي هذه السنة ولي الامير تميم بن يوسف اشبيلية من بعد ولايته اغرناطة فوردها في جمادى الثانية .

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة صرف الامير تميم عن ولاية اشبيلية ووليها ابو بكر بن علي بن يوسف .

وفيها حاصر اسطول صاحب صقلية مدينة المهدية ونزل عليها في جمادى

(١) في المطبوعة : بقوطرة والتصويب عن المكتبة الصقلية : ٢٨٢.

(٢) في المطبوعة : بمنع .

(٣) يحدثنا ابن الاثير أن علي بن يحيى صاحب المهدية كتب لأمير المسلمين علي بن يوسف ليجتمعا على قصد صقلية ، ولكن علياً توفي سنة ٥١٦ وخلفه ابنه الحسن، فأرسل علي بن يوسف الأسطول سنة ٥١٦ ففتح نقوطرة بساحل قلورية Calabria وهذا أدى برجار الى جمع اسطول كثيف قيل انه هيأ فيه ثلاثمائة قطعة وجهها لغزو ساحل افريقية (سنة ٥١٧) (انظر المكتبة الصقلية ٢٨٢ - ٢٨٣) .

الاولى في نحو ثلاثمائة مركب حمل على ظهورها ثلاثين الف راكب وزهاء الف فارس فأرسل الله عليهم ريحاً صيرت جميعهم الى الانتشار ، وأصلتهم مع برد الماء حر النار ، فلما عاينوا ما نزل بهم انزلوا عن ظهور مراكبهم ما كان انجاه الغرق من افراسهم فصدموا بها جيوش المسلمين فخيب الله آمالهم وجعل الدائرة عليهم لا لهم ، وأقلع جميع الاسطول خاسرين الى بلادهم وبعد ذلك لم [تجلب] صقلية بخيل على المهدية الى ان استولى عليها بعد ذلك واخرج الروم منها الموحدون على ما يأتي .

وفي سنة ثمان عشرة وخمسمائة تسمى محمد بن تومرت السوسي بالمهدي وكان لما اشتهر صيته [١] في قبائل الجبال ووصلوا اليه رحل معهم الى جبل ايجليز لهرغة فلما صار في منعة الجبل وحماية عشيرته خاطب القبائل ومد يـده للبيعة وذلك في سنة ست عشرة على ما اذكره في موضعه . قال اليسع بن عيسى الغافقي :ولما صعد الامام بالجبل امر بتحصين موضعه لانه ما كان له الا طريقاً واحـداً وذلك الطريق لا يمشي فيه الا راكب بعد راكب من كثرة توعره واخذ يعرض اصحابه على قتال الملثمين ويقول لهم اقتلوا المجسمين والبرابر المفسدين والفقهاء المكارين . قال ابن القطان [٢] : ولما ارتقى جبل ايجلـيز اقام فيه ثلاثة اعوام من سنة خمس عشرة الى هذه السنة المؤرخة .

وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة [٣] امر المهدي بتمييز الموحدين ونودي في جبل المصامدة من هرغة وجنفيسة من كان مطيعاً لله ولرسوله وللمهدي فليصل وكانوا يعرضون الى ابي محمد البشير فيخرج قوماً على يمينه وقوماً على يساره فكل من اخرجه على يمينه يزعم انه من اهل الجنة وكل من اخرجه على يساره يزعم

---

(١) نظم الجمان : ٧٥ وهو منقول عن اليسع .
(٢) نظم الجمان : ٢٣ .
(٣) شرح ابن القطان : ١٠٢ ـ ١٠٤ قصة هذا التمييز وانظر البيذق : ٧٨ وابن خلدون، ٦ : ٢٢٨ وابن الأثير ٨ : ٢٩٧ ونهاية الأرب ٢٢ : ١٩١ .

أنه من اهل النار ولا يخرج على اليسار الا من كان شاكاً في ان الامام هو المهدي المعلوم.. الله ممن خرج على اليسار آلافاً ذكر ذلك ابن القطان وغيره، واخبرني ابو علي صالح قال : لما قتل محمد بن تومرت هزميرة تينمل قال له الفقيه الافريقي احد عشيرته « كيف تقتل اقواماً بايعوك ودخلوا في طاعتك وتقسم أموالهم ؟» فأمر به فقتل وصلب لانه كان شك في عصمته؛ وكان قتله لهزميرة تينمل سنة ثمان عشرة جمع المهدي عليهم اهل تلك الجبال فقام بهم وقتل منهم فيما ذكروا خمسة عشر الفاً فلما استأصلهم وسبى اموالهم بنى حصن تينمل فلما ملك المهدي تلك الجبال وما حولها ضاق الامر على علي بن يوسف فبعث اليها عسكراً فهزم .

وفي هذه السنة (١) خاطب اهل نظر اغرناطة من جبل دور ... والبشارات لابن ردمير وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم ملحة عليه في الاستدعاء مطمعة له بدخول اغرناطة ووجهوا له زماما يشتمل على اثني عشر الفاً من مقاتلتهم وأعلموه ان هؤلاء ممن شهدت اعينهم لقرب مواضعهم وبالبعد من يخفى امره « ويظهر عند ورودك شخصه ، وهذه الجملة كافية ، وعورات البلاد بادية ، وعندنا رتب ونظر نخرج لك عنها بالمسانية ؟ » فاستزاد طمعه وابتعث جشعه واستفزوه بأوصاف اغرناطة ومالها من الفضل على سائر البلاد بتحصينها وكثرة عيونها وانهارها ومنعة قصبتها وانطباع رعيتها وانها المباركة التي يملك منها غيرها وهيَ المسماة سنام الاندلس عند الملوك في تواريخها ، وأشخصوا بكتابهم وزمامهم كهولاً منهم تكلموا بين يديه ملء افواههم ورموا على ذلك الغرض حتى عزم وجدّ في الحشد وانتخب من محتشده خمسة آلاف فارس وخمسة عشر الف راجل .

وتحرك بهم اول شعبان وقد اخفى مذهبه وكتم اربه الى ان وصل بلنسية

(١) قارن بما جاء في الحلل الموشية ٧٥ — ٨٠ والاحاطة ١ : ١١٤ والنص هنا يتفق في كثير من عباراته مع ما جاء في الاحاطة .

في يوم الثلاثاء الموفي عشرين من رمضان فأمر بضرب محلتـــه ومشى في اهبة فمر عليها وزاحمها ثم رحل عنها من موضع الى موضع الى ان وصـــل مدينة وادي آش [1] فاضطرب محلته بموضع يعرف بالقصر [2] من باديتها على فرسخ منها ، وذلك لعشر بقين من شوال ، فبدا نجيث [3] المعاهدة في استدعائه ، وافتضح سرهم في اجتلابه [4] وهمّ الامير ابو الطاهر بجمعهم وثقافهم ، فأعياه ذلك بكثرتهم وبعد اقطارهم ، واقبلوا يتسللون الى ابن ردمير على كل طريق ومن كل فج عميق ... فكثرت رجلتـــه وضخمت جملته وضايق مدينة وادي آش بالحرب من جهة القبلة فرأى ... فجد في حربها من الغد فأتت عليها السهم وفقد جمـــلة من ... أقام بمضطرب محلته نحو النهر وأهـــل وادي آش في حصـــار صعب قد اخذوا المنـــازل وسكنوا ... ارباض ... المتجلدة من السترة تنتقل اليها الاحجار وكانت تبرز المخـــدرة من خدرهـــا ومنهتك من سترها .

ولما اتصل بامير المسلمين نبأ ابن ردمير اللعين انفذ امره الى اقطار العدوة بتسريب الجيوش الى الاندلس فأجازت البحر وجدت في السير حتى احدقت باغرناطة ، واقبلت عسكرية مرسية وبلنسية ، وتحرك ابن ردمير من وادي آش وأخذ على بربيطة [5] يوم النحر ، فصلى الناس بالمصلى صـــلاة الخوف وهم في الاسلحة ، وتحرك الامير ابو الطاهر من اغرناطة بالجيوش للقاء العدو فمشى مسافة اميال ثم صدر الى المدينة ، وظهرت أخبية العدو في غد صدوره اليها على فرسخين منها وجاءت الطلائـــع منبئة بها فعميت ... وانقطعت السابلة

---

(١) Guadix .

(٢) Alcazar وهي واقعة إلى الجنوب الشرقي من غرناطة .

(٣) في الاصل : فبدأ يحث وفي الاحاطة : فبدأ بحث ، وكلاهما خطأ ، وبدا نجيث المعاهدة يعني ظهر ما كان مكتوماً في انفسهم.

(٤) في المطبوعة : اجتلائه .

(٥) كذا وفي الاحاطة والحلل ٧٧ :«وتحرك من وادي آش فنزل بقرية دجمة» (Diezma) وهي تقع إلى الغرب من وادي آش .

والواردة وقلّت المرافق وتزاحم الناس في المدينة وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب والخراب وكثر الجزع والارجاف والموجان بالنهار والليـــل .. والاسوار معمورة باهل البلدة وما نسي في الدور غير الصبية والنسوة، وتوالت الامطار وسالت الطرق وضاقت النفوس اشد ضيقة .

واقام بن ردمير بمضطرب محلته بضع عشرة ليلة لم تسرح له سارحـة ولا شنت غزوة ولا انفصـــل بعض جيشه عن بعض ، والمعاهــــدة تجتلب اليه الاقوات والعلوفات ، وخيل المسلمين تراوحـــه وتغاديه دون مناوشة ، وفي خلال ذلك سفر الى رأس من رؤوس المعاهـــدة بالحضرة يعرف بابن القلاس يوبخه على استدعائه ويلومه على تضمنه بما لا يفي به ولا يقدر عليه ، فاحتج له بتلومه وتباطؤه في اقباله حتى اقبلت الجيوش من الشرق والغرب والعدوة وقال له : قد أوبقتنا واوقعتنا في الهلكة الى المسلمين، وساق نفسه الى الخزي فلما انصرف السفير بهذه المقالة تحرك ابن ردمير بمحلته من موضع الى موضـع الى الجبل الذي يحوفي .. قبرة [١] فبدت للمسلـــين جملة محلته وكانت قبل مكنة بالجبال والشعْراء .

وبعد حركته من خارج اغرناطة لحق الامـير ابو بكر امير المسلمـــين بمحلته من اشبيلية فأقام يوماً ، ثم تحركت الجيوش في أثر العـــدو ، واقام ابن ردمير بجبل قبرة اياماً ثم تحرك منه، وعساكر المسلمين تتبعه وتنتقل بانتقاله ... عـن يمينه وشماله الى حصن ارنيسول [٢] ، فصبحته الجيوش يوم الاربعاء الثالث عشر من صفر فكانت عامة النهار مكافحة وفي اثنائها مناوشة والظهور عليه . فلما طفلت الشمس أمر الأمير تميم برفع خبائه من وهدة كان فيها الى ربوة عالية ... ، فاختـــل الامر وانتكثت تعبئة الجيوش وساء به

(١) قبرة (Cabra) تقع الى الشمال الغربي من غرناطة .

(٢) ارنيسول (ويكتب احياناً الرنيسول) Arnizol أو Arnazuel فحص «رحصن» يقع إلى جنوب غرناطة .

الظنون ، وأخذ الناس في الفرار وجعلوا اوجههم الى الساقة ، وتهيب العدو والأمر فلم يدخل المحلة الا بعد هدأة من الليل ، ثم اخذ الى جهة الساحل ، ثم عاد الى اغرناطة فضرب محلته على ثلاثة فراسخ منها فأقام بهـا ثلاثة ايام وفي الرابع ... العساكر وسرعان خيله بقرب من الزاوية صمد أبو حفص بن توزجين بجيش مكناسة ... ووقع الضرب والحرب فأخرجهم عنها ، وصار المسلمون الى المدينة وانجلت الجيوش عن هذا الفحص . استشهاد رجال من الموحدين ... وانتقل ابن ردمير الى المرج مضيقاً عليه والخيـــل تحرجه ، فاضطرب محلته مضطراً ثم رحل منه ورجع الى وادي آش وقد بادره ينااله اللمتوني بعسكر فاس ، فحاربه من جهة واديها ، ففقد عدداً كثيراً في ذلك اليوم واصيب له زعيم كبير ، فرفع أخزى رفع ، ودفع شر دفع ، فأخذ الجيوش تضيق عليه الى فحص قرباقة [١] من انظـار مرسية ، فاجتاز بجيوشه وأخذ على حصون شاطبة والعساكر في كل ذلك تطأ اذياله وتناوشه وتصيب منه ، فكان يترك في كل منزل هلكى ومرضى لا ترجى ، حتى لحق بلاده مخترم الجمع مفلولا بلا حرب ، ومن خلص من حملته الى موضعه استولت عليه الامراض ... الاغراض فكاد الحـــين والموت يواصلهم وصدرت العساكر ... واستقر المختص منها بالاندلس في مواضع ارزاقها ، وأخذ المدد في الاجازة الى العدوة .

وفي هذه السنة احتسب الفقيه القاضي ابو الوليد بن رشد [٢] - آجره الله - وتجشم النهوض الى حضرة مراكش ، فتلقـاه امير المسلمين بالمكرمة والمبرة ، وبين له القاضي امر الاندلس وما بليت به من معاهدتها وما جرّوه اليها وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير ، وما في ذلك من نقض العهد والخروج عـــن الذمة ، واصغى اليه الامير عليّ وتلقى قوله بالقبول ، فوقع نظره على تغريبهم

---

(١) Caravaca .

(٢) انظر خبر جوازه هذا في الاحاطة والحلل الموشية ، وقـــد اخطأ ابن القطان فجعل جوازه سنة ٥٢٢ وكانت وفاته قبل هذا التاريخ .

واجلائهم من اوطانهم وهو اخف مـــا يؤخذ به من عقابهم ، ونفذ عهده الى جميع بلاد الاندلس [باجلاء .] المماهدين الى العدوة،فنفي منهم في رمضان عـدد جم انكرتهم الاهواء واكلتهم الطرق ونسفتهم الاسفـــار ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شذر مذر واحل بهم عاقبـــة مكرهم واذاقهم وبال امرهم ولا يحيق المكر السيء الا بأهله .

ونبه القاضي على بناء الاسوار فشرع الامير علي بن يوسف في بناء سور محدق بمراكش في هذه السنة فكمل في اقرب وقت وأعجله، وورد كتاب الامير علي بن يوسف الى الاندلس بالنظر في الاسوار بجميع البلاد فتلوم ذلك النظر فيه حتى صرف الامير ابو الطاهر عن اغرناطة وقرطبة في رمضان ونهض الى مراكش ، وقدم ابا عمر ينااله على اغرناطة ، وقدم أبا حفص عمر بن سير على قرطبة ، وخرج ينااله من اغرناطة بالجيش متحملاً ميرة اقليش فلما احتل ... اعترضه جملة وافرة من الروم ووقـــع الضرب بينهم وثبت المسلمون فهزم الله الكفرة ، واورد ينااله الميرة وصدر ظافراً ظافراً . ولما استقر ينااله بغرناطة بعد انفصال الميرة وقد تهيب امره وانتهج امر السور ثم اغزى الامير ابو... ابن يوسف بن تاشفين ارض طليطلة في جيشه وجيش قرطبـة فغنّمها وصدر منها غانماً ظافراً الى اغرناطة .

ذكر التعتيب بالاندلس وبناء الاسوار في هذه السنة

فلما صدر حد في تعتيب البلد وقلد ذلك من وقع الاتفاق عليه من قاضي[1] القطر ابي القاسم بن ورد وصاحب المستخلص ابي علي بن هدبة وقدم لقبض المعتب رجل من بني نجبة لم يكن من الحزمة ولا من الخدمة فمزق المـــال كل ممزق ، وعاث فيه كل ممخرق ، وذم ينااله جميع البنائين ، وشد على الناس في دفع المال فكانت الآلات متمكنة والموردة متصلة ، وتُـهُـيِّـبَ ينااله فكان

الناس يخافونه اضغطه وشدته ، وكمل السور في اقرب وقت ، وكان حاطب ليل ، وبعض البنائين غثاء سيل ، لا وفوا التأسيس ولا قوموا الترصيص ، ولأقرب مدة وهى وسقط كثير منه على المجاورة بجهة باب الرملة وباب البيرة ، فأهلك جملة لا تحصى وكثر الدعاء على بانيه وموّنه [1] .

وتولى النظر في اسوار المرية رجل منهم يعرف بابن المجمي من اصحاب ابن ميمون ، فأخذ بالحزم ، واستكثر بالسياسة والعزم ، ولم ينفق شيئاً من المال الا في موضعه ، ولا استعمان الا بمن جدّ في نصحه ، ورأى الناس ذلك فتساهلوا في الاداء وتواصلوا حمل تلك الاعباء ، فكمل السور على واجبه من التحصين والتحسين ، بيسير من المونـــة دون ضرب ولا سجن . وتولى اهل قرطبـــة رمّ اسوارها على سالف عادتهم ، فعزم أهل كل مسجد اقامـــة ما يليهم فكمل الأمر دون تشغيب ولا تعتيب ، وكذلك اهل اشبيلية بوسط الحال دون اسراف ولا اجحاف .

وفي ليـــلة الاحد الحادي عشر لذي القعدة توفي بقرطبة الفقيه القاضي ابو الوليد ابن رشد رحمه الله [2] وهو محمد بن احمد بن رشد وله « شرح المستخرجة [3] » تأليف لم يسبق احد من العلماء الى مثله ينيف على المائة جزء هكذا ذكر صاحب كتاب « الأنوار الجلية في محاسن الدولة المرابطية » وله مقدمات في الفقه فسّر فيها مذهب مالك - رحمه الله - بأبلغ حجة وأوضح معنى الى غير ذلك من التواليف . وصلى عليه ابنه ودفن بمقبرة بني العباس فلم يعهد مثل ذلك اليوم في الحفل وكثرة المخلوق فيه .

وفي سنة عشرين وخمسماية قال ابن حمادة : قام رجل في ريف سبتة في

---

(١) في المطبوعة : ومونيه .

(٢) انظر ترجمة ابن رشد الجد في الصلة : ٥٤٦ والنباهي : ٩٨ والديباج المذهب : ٢٧٨ وبغية الملتمس رقم ٢٤ .

(٣) اسم هذا الكتاب « البيان والتحصيل ، والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل العتبية » .

كركال وادعى انه الخضر فقبض عليه في العشر الأول من جمادى الآخرة ووصل الى سبتة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من الشهر المذكور فحمل منها الى حضرة مراكش فقتل وصلب .

وفي هذه السنة تواترت أخبار المهدي بمراكش وطاعت له الجبال كلها .. فأكمل البشير الونشريسي الميز في العام الفارط امره المهدي بالتقديم على الباقين .. فغزا بهم في هذه السنة كبك ووصل الى اغمات وحوز مراكش ورجع الى الجبل ، فأخذ الأمير علي بن يوسف يبني المراصد بقرب مراكش ويسد الطرق التي ينزل منها اتباع المهدي الى الاوطية .

وذكروا انه في هذه السنة كان وصول ابن رشد الى مراكش ووفاته بقرطبة والله أعلم (١) .

وفي هذه السنة نهض يناله اللمتوني الوالي على اغرناطة الى شرق الأندلس فلم يزل به الى ان عزل عن اغرناطة في جمادى الاولى من عام اثنين وعشرين فكانت ولايته سنة وتسعة اشهر ، وكان ابو عمر يناله استدعى فقهاء وعلماء من اهل جيان فلما حضروه أمر بسجنهم ظلماً واعتداء ، ثم نهض للغزو الى الشرق فلم يزل في تلك الوجهة وهم في العقلة الى ان عزل بالامير ابي حفص عمر بن امير المسلمين علي بن يوسف ، فلما ورد اغرناطة بادر بإخراجهم واصدارهم الى بلدهم على غاية المبرة والكرامة ، وفرج الله بعزلة ينالة عن المسلمين الغمة وانفرجت الضيقة بالأندلس .

وفي سنة احدى وعشرين وخمسمائة قال ابن القطان : وجمع الامام المهدي في هذه السنة نحو اربعين الفاً من الرجال ونحو اربعمائة فارس فنزلوا على مراكش فخرج اليهم لمتونة في اكثر من عددهم مع اميرهم علي بن يوسف فهزموه ، ومات عسكر علي بن يوسف على باب اغمات ، وطال حصار مراكش نحو اربعين يوماً يلتقون فيه ويتقاتلون ، وخرج علي بن يوسف

(١) في هذا متابعة لما ذكره ابن القطان . انظر الحاشية رقم ٢ ص ٧٢ .

أيضاً بعساكره وانهزم ومات من عسكره خلق كثير بالزحام عند باب دكالة ، وفر أقوام من عسكره حين لم يجدوا من اين يدخلون الى مراكش حتى وصلوا الى وادي ام ربيع ، فلما رجعوا بعد ذلك الى المدينة امر علي بن يوسف بحلق لحاهم ومثل بهم . ولما مكث اصحاب المهدي بحشودهم في البحيرة المدة المذكورة وصلت الحشود والعساكر من كل مكان الى علي بن يوسف فخرج بهم اليهم فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعاً ، وفقد في هذه الهزيمة ابو محمد البشير ولم يجده الموحدون ولا المرابطون لا حياً ولا ميتاً [1] . وذكروا انه كان لطايفة المهدي على علي بمراكش اربعون هزيمة ، [و] عليهم هـــذه الهزيمة المعروفة بهزيمة البحيرة قتلوا فيها اجمعين حتى لم يبق منهم الا نفر يسير مع عبد المؤمن ؛ وقدم عبد المؤمن مرة أخرى وبات على هيلانه فحشدهم ورجع بهم الى مراكش فهزموا ايضـــاً ، فمات في تلك الهزيمة نحو اثني عشر الفاً وتوجه عبد المؤمن مع خمسين رجلاً الى تينمل ووجد المهدي فقال لهم : « بقي الامر [2] » .

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ولى امير المسلمين علي بن يوسف ولده عمر في مدينة اغرناطة واحتلها في شهر جمادى الاولى . وكان في جملته رجل زيه التلثيم نشأ بمدينة طنجة وتأدب باشبيلية يعرف بموسى بن مفروح له خط بارع وأدب صالح ونفوذ في الحساب وكانت له نفس ذكية وهمة عالية القى اليه الامير ابو حفص جميع الأعمال وأوطأه [عقب] [3] الرجال فاستبد

---

(١) قد ألحت المصادر الموحدية الى ما يشبه المعجزة في اختفائه (انظر البيذق : ٢٨) .

(٢) انظر تفصيل وقعة البحيرة في البيذق : ٧٨ - ٨١ . ويعني المهدي بقوله « بقي الامر » أن عبدالمؤمن رجع حياً من المعركـــة ، يقول راوي الخبر : « فأسرعت حتى وصلت المعصوم (أي المهدي) فأعلمته . فقال لي : عبد المؤمن في الحيـــاة ؟ قلت : نعم ، قال لي : الحمد لله رب العالمين قد بقي امركم .

(٣) في المطبوعة : وأوطأ فيه .

بالأمر واستقل .. فدس اليه يهودي ينتحل الطب سقاه يوم اربعاء ودفن يوم جمعة .

ولحق الامير ابو بكر والي اشبيلية بغرناطة متوجهاً الى شرق الاندلس فسار اليه الامير ابو حفص اخوه فدخلوا المدينة في اجمل هيئةواتقن زينة... فاجتمع بأخيه واقبلا مقترنين والجيوش تحفهما وكان مضطّرب محلة الامير ابي بكر بالمصلّى فتلوم اياماً ثم تحرك الى وجهته فقصد حصناً كان للروم قد تملكوه غدراً فنصب عليه الحرب ودخـــله عنوة ، وامتلأت ايدي المسلمين بكثير من الاسلحة والآلات والزي والمتاع وثقف الامير ابو بكر الحصن بالرجال والرماة وصدر فبرز له بغرناطة احفـــل تبريز ثم أغذّ السير الى اشبيلية .

وقد نفذ كتاب امير المسلمين الى ولده صاحب اغرناطة بوصوله اليه واقام واجدى بن سير مع اخيه عمر والي اشبيليـة وعبدالرحمن بن ابي بكر والي قرطبة وصدر ابو عمر ينـــاله عن الشرق الى اغرناطة ثم توجه الى الجزيرة وجاوز البحر ، فلما وصل الى حضرة امير المسلـــين علي بن يوسف اشـار بذكره اليه مُعاهدةَ اغرناطـة ، فأمر بحضره معهم في مجلس نظره ، فأدلوا بحجج في ظلمه فسجنه لهـــم حتى انصفهم من ظلامتهم ثم بعد ذلك اصابه طاعون كان سبب حتفه ؛ وكان هذا يناله اذا عاقب الجاني اعتـدى عليه ، واذا اوتي بالبريء لم يسمع منه ، وكان له كاتب يهودي الاعراق والاخـلاق يبغض الناس ويبغضونه اشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به ، فبدا بشؤمه امـــيرَه يناله ، فجرّ اليه العزل واورده السجن وأداه الى الهلكة ، وغدا شؤمه عليه فاستؤصل مـــاله ونهبت داره وطلب ليوقـع به ففر وهلك بعد ذلك وكان اشقر ازرق دميم الخلق في وجهه خال .

وفي رمضان المعظم من هذه السنة صرف الامير ابو حفص عمر بن امير المسلـــين علي بن يوسف عن اغرناطة وكانت ولايته بهـا اربعة اشهر ووليها

عبدالله بن ابي بكر اللمتوني وكان في شرق الاندلس بجيش العدوة فلما وصلته الولايـة أورد كتاباً على ابي يحيى بن رواده يستنيبه في الامـــور المختصة فتولى ذلك .

وفي هذه السنة استمرت عزمة علي بن يوسف اقتداء بابيه في اشارتهم الى من يقوم بالامر من بعده ، فاستدعى من نواب القبائل من وثق بدينه ونظره وفاوضهم في مذهبه ، فكل شيخ ورد على تهمّمه ، وأشار بالامـير ابي محمد سير ابنه ، فأمر كتبته بانشاء البيعـــة له ، فنزع كلٌ سهمه الى غرض طبعه وعلمه فلما وقف عليه أعرض عنه وأمر بنقل البيعة المتعهدة في قرطبة باسمه، فألزم نفسه ما التزم وقلده ما تقلده وانفذ الكتب الى عماله وقضاته بالاندلس حتى أخذ البيعة في كل بلدة ، فانعقدت في كل قاعدة بيعة يوم الجمعة الرابع عشر من جمادى الاولى ... امير ابي حفص ثم دنى بها واستدعى الزعـــماء والاعيان من جميع جهات اغرناطة فلما .. فيها انفذ الى امير المسلمـين بها وتساجل في هذا الشأن اهل البلاد ، هكذا ذكر الصيرفي في كتابه .

قال الوراق في المقباس : لما عزم علي بن يوسف على ان يخلع عهده على ابنه سير الذي من امته [قمر] (١) وجه الى عقد ذلك .. أهل العقد والحل من الفقهاء والقضاة وجمع لذلك بني عمه واخويه الامـير تميا كبيره واخاه ابراهـيم صغيره المشتهر بابن تاغيشت وهي امـة سوداء ، فسلم الأمر لابنه سير وشهد الشهود عليه بذلك وكملت البيعة له وارسل بهـــا الى سائر الاقطار والانظار فاستقرت البيعة للمذكور والتزم قبولها واستقل بالامر ونظر في سائر مـــا تدعوه الضرورة من امور الجيوش والاحكام والولايات والعزل ورد المظالم وقعد للناس قعوداً فخماً وكان تام الخلقة حسن الخلق كامـل الأدوات من الفروسية وغيرها جميل الهيئة ولم يكن له ولد لانه كان عقيماً ولم تطل مدته فهلك في حجر أبيه ، وتكلم الناس في سبب موته بأحاديث شنيعة .

---

(١) أثبتناه اعتماداً على الاحاطة ١ : ٤٥٥ .

ذكر ولاية تاشفين بن علي بن يوسف الاندلس ونبذ من اخباره

لما ولى علي بن يوسف ابنه سير ولاية عهده ، وجعل له الأمر من بعده ، رأى أن يولي ابنه تاشفين الاندلس فولاه امارة اغرناطة والمرية ، الى ان عزل عن قرطبة ابن عمه عبدالله بن جنونة ، فولاه مدينة قرطبة مضافة الى ما بيده لما حسن منابه ، وذلك بعد سنتين من ولايته ، فدخل قرطبة سنة اربع وعشرين واستقر بها ونظر في مصالح امورها وكان بطلاً شجاعاً حسن الركبة والهيئة لولا بخل أخل به وكان يسلك طريق ناموس الشريعة ويميل الى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المريدين وقيل انه لم يشرب قط مسكراً ولا استمع الى قينة ولا اشتغل بلذة صيد ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من سائر اللهو ، وظهرت له بارقة في النصر على النصارى الضارين ببلاد الاندلس فانه كان يؤثر فيهم ويهزمهم في اكثر الاوقات فأحبه اهل قرطبة خواصها وعوامها، فبعد صيته وعلا ذكره ، وساس اهل الاندلس سياسة طار بها ذكره من الاستقامة واتباع لامور الشريعة (١) .

ولما بعد صيت تاشفين (٢) في امر الغزو والجهاد، وشاع ذكره في سائر البلاد ، كبر ذلك على اخيه ولي عهد أبيه سير وفاوض اباه في ذلك وقال له : « ان الامر الذي املتني له لا يحسن لي مع تاشفين فانه قد حمل الذكر والثناء دوني وغطى على اسمي وامال اليه جميع المملكة فليس لي اسم معه ولا ذكر» فحينئذ عزله ابوه عن الاندلس وامره بالوصول الى حضرته ، فوصل تاشفين مراكش وصار في جملة من يتصرف بين يدي اخيه سير فكان يحضر مجلسه في جملة كبار لمتونة ويقف على بابه ولم تطل المدة الى ان جرى من امر سير ما

(١) انظر وصف تاشفين في الاحاطة ١ : ٤٥٦ وفيه بعض ما أورده ابن عذاري .

(٢) الاحاطة ١ : ٤٥٤ .

جرى ؛ ومات حسبما اذكر في موضعه وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ؛ هكذا ذكر الوراق .

وكانت ولايته بالاندلس سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، قال ابو بكر الانصاري : ولي اغرناطة الامير تاشفين فوافاها في السابع والعشرين[1] لذي حجة سنة ثلاث وعشرين فقوى الحصون وسد الثغور واذكى العيون على العدو وآثر الجند ، ولم يكبر الا الجد ، ولم تنل عنده الحظوة الا بالغناء والنجدة ، ولذلك حمل على الخيل وقلد الاسلحة واوسع الأرزاق واستكثر من الرماة واركبهم واقام هممهم وعني بالغزو ومباشرة الحرب فهزم الجيوش وفتح الحصون وتهيبه العدو ولم ينهض الا ظاهراً ولا صدر الا ظافراً ومهد الملك بالحزم وتملك نفوس الرعية بالمعدلة وقلوب الجند بالنصفة . قال:ولولا الاختصار لأوردنا من خلاله السنية ما يضيق عنه الرحب ولا يسعه الكتب.

وفي هذه السنة ، وهي سنة ثلاث وعشرين أغزى واجدى بن عمر بن سير اللمتوني على طلبيرة بجيش اشبيلية فاكتسح ما بها وبالغ في النكاية وصدر بالسيقة ، فتبعه زهاء خمسين فارساً للعدو َفحُضّ على صرف عدد يصيب منهم او يشردهم ، فتهاون بهم ، فلحقه عدد آخر فقيل له بدِّدْهُم قبل تجمعهم فأعرض عن ذلك حتى تكامل للعدو زهاء ثلاثمائة فارس حمل على جيش المسلمين فانهزم لهم واصابوا من المرابطين جملة وافرة واسروا عدة ، ورفع الامر الى علي بن يوسف فألزم واجدى فدية من اسر وأنفذ عزلته وولاية الامير ابي زكرياء يحيى بن علي ابن الحاج ومجوز[2] ، وكانت ولاية عبدالله بن تينغمر مدينة قرطبة في السنة الفارطة عن هذه وهو ابن اخت علي بن يوسف .

وفي سنة اربع وعشرين وخمسمائة استصرخ صاحبُ قرطبة الأمير تاشفين،

---

(١) في الاحاطة : في السابع عشر (وأورد النص المذكور هنا : ٤٥٦ ، ٤٥٧ مجزءاً) .

(٢) يعني أنه يعرف بابن الحاج او ابن مجوز (وتكتب : مقوز) .

والعدو مصمم نحوها ، فبادر اليها فارتدع العدو عنها ورجع عوده على بدئه ، فلم تكن له نكاية ، فثنى الأمير تاشفين أعنته الى مدينة جيان وأقام يستطلع الأنباء ثم صدر الى اغرناطة .

وفي هذه السنة توفي صاحب بلنسية محمد بن يوسف يدر وتولاها ينتان ابن علي اللمتوني[1] فقرن الله بذلك ... وظهر بالروم وسيق رأس زعيمهم غشتون[2] الى اغرناطة في شهر جمادى الآخرة، فنصب على ذروة رمح وطيف به الاسواق والسكك وشهر بضرب الطبول ، وأغذ به البشير[3] الى امير المسلمين علي بن يوسف وهو بمراكش ؛ فأنشد الأمير تاشفين أبو بكر محمد بن يوسف شعراً ارتجالاً وهو :

بِسَعْدِكَ شبَّتْ في الأعادي لظى الحربِ
فجاءك مـا تهوى من الشرق والغربِ

وَقد كنتَ بشَّرْتَ الأميرَ بأنها ... بعيد مسرات تجيء على قرب
فقد أنجز الرحمن بالنصرِ وعده ... وسهَّلَ أمراً كان في غاية الصعب
[فخيلك قد] القت بإيلانَ بَرْكها ... وأمضتْ على غشتونَ بالطعن والضرب
وجاءك منها رأس غشتون مخبراً ... على جسد للرمح كفا على ....
صوتاً احر المسى في لسانه ...(؟) ... ولكنه [في] الحال من افصح العرب
وما هذه من تلك اعظم نعمة ... ولكنه ترب أضيف الى ترب
. . . . على السبرى وقرب الى الحب

وقيل في ذلك :

يا تاشفينُ وقطبُ الحرب عاطشة ... وليس الا دم الاعداء يُرويها

(١) ذكر يدر بن ورقاء بين ولاة بلنسية (مفاخر البربر : ٨٢ وذكره صاحب الحلل: ٧٦ وكناه بابي محمد ، ولعل لفظة « أبي » زائدة) . أما ينتان فكان أصغر أبناء علي بن يوسف ابن تاشفين.

(٢) Gaston del Bearne .

(٣) في المطبوعة : البسم ؛ ويذكر ابن القطان : ١٨١ أن رأس غشتون حمل الى مراكش.

قد راسلتك ملوكُ الروم صاغرةً في السلم اذ كادت الهيجاء تفنيها
فخيلها الكمتُ ملقى البيد وادعة وكمتك الخيل تعدو في مغانيها
تخشى عقابَك في أقصى منازلها وتطلب العفوَ من أعلى صياصيها
اذا اتت رسلها جاءتك مقبـــلةً والسيفُ من غمده سراً يناجيها
تخافُ بحرَ نداك الغمْرَ يُغرقها وتتقي الشّزْرَ من مرآك يعشيها
لا تسمع القول الا ان يحركها ولا ترى الشخص الا ان يناديها
تملّكَ الرعبُ منها كل جارحة فما لأعضائها فعلٌ يواتيها
فامنأ فانّ بلادَ الله اجمعهـــا اليك تكفلُ من فيها وتكفيها

ولما وردت رسل الروم راغبةً في السلم أحسن اليهم وصرفهم الى ملكهم، وأمر بتشييعهم الى مأمنهم ، ثم أخذ في الحزم والعزم ، ونظر في حسم العلل وحد لهم التأهب وأمر الأدلة بالفحص عن الأنباء وأخذ الألسنة .

وبأثر ذلك ورد النبأ الصادق ان القمط [١] احتفــل في الحشد وخرج الى بلاد الاسلام وعزم الامير تاشفين على الخروج الى طرف نظره فتواترت الانباء بتعريج العدو الى طريق اشبيلية يوم النصف من رجب وكان واليها ابو حفص عمر بن الحـــاج اللمتوني الملقب ومجور [٢] ، فلم يشعر الا والخيــــل جائلة بالشّرَف [٣] فخرج بمن كان معه فوقف على ضفة الوادي ببعض خيله ورجله، وأجاز البعض ليكفّ عادية الخيـــل الغادية عليهم ، فظفروا ببعض الروم وكروا بهم الى الامير عمر ، فاستخبرهم وأمر بضرب اعناقهم ، ومن بالضفة الاخرى من خيل الروم ينظرون اليهم ، فاحتلتهم الحميـــة ، واقتحموا النهر فحاص المسلمون حيصة أجلت عن الأمير عمر صاحب اشبيلية قرب المسلمين كرم ... بشهادة ، فقيل ان حجراً كان يلقى على الظهر ، فلما ألهب الفرس

---

(١) Conde أو « قومس » يعني ردوريجو جنثالث ، الذي قام بهذه الحملة .
(٢) الصواب « مجوز» أو « مقوز » كما مرّ وهذا هو أخو يحيى بن علي ابن الحاج الذي تقدم ذكره .
(٣) الشرف El Ajarafe هو منطقة التلال المحيطة باشبيلية .

بالجري سقط واثقله عن انقيام الدرع ، فداسته الخيل وبطت بطنه بالطعن .
وفي صبيحة تلك الليلة اضطرب الروم بالمحلة على فرسخين من مدينة اشبيلية ، فقتلوا عظيماً وسبوا عظيماً برأى عين ومسمع اذن ، واستاقوا من الاسرى والمواشي والآراب ما لا يحصيه عد ولا يحصره حـد ، فلم ... عن احراق الزرع وقطع الشجر ، وأسرعوا [في] الصَّدَر ؛ ولما علم تاشفين بأخذ العدو الى جهة اشبيلية خرج بالجيش الى سمت قرطبة ، فتلقاه كتاب القاضي بها محمد بن اصبغ معلمـاً له باكتساح العدو مدينة اشبيلية وعرّفه باستشهاد صاحبها ، فجدّ السير في الوصول اليها وقد قتل رئيسها وفض جمعها [1] ... من اهل الحـاضر المتصرفين اسعارها وكثر ... والتادب من اشبيلية وأمر بتنكيله وسوقه الى جزيرة ...

وكان تميم بن يوسف بن تاشفين والياً على فاس فيها فعزله أخوه في سنـة ثلاث وعشرين بعد ولاية العهد لسير بن علي فولـّى بعده محمد بن يزول. وفي هذه السنة وهي سنة اربع وعشرين عزل يزول عن المغرب وولي حـازم بن داود بن عمرو بن يحيى .

وفي هـذه السنة هبط الموحدون الى مراكش وحصروها وبقيت أياماً لا يدخلها احد ثم وقعت الملاقـاة فحصل من اللمتونيين خلق كثير لم يحص لهم عدد وهرب باقيهم الى مراكش واتبعهم الموحدون الى بابها فتراموا في الحفير وطلع فيه الناس على الناس حتى امتلأ منهم ثم رجع الموحدون عنم الى محلتهم وبقوا عليهم اياماً فوقعت بينهم وقعة مات فيها من الموحدين من قضى الله له بذلك . انتهى كلام ابن حمادة .

وفي هذه السنة وهي سنة اربع وعشرين المذكورة نزلت طائفة من قبائل

---

(١) يجعل ابن عذاري هذه المعركـة سنة ٥٢٤ ، ويؤرخ ابن الخطيب حركة العدو إلى اشبيلية أواخر عام ٥٢٥ ، أمـا ابن عبد الملك فيشير إلى أن مقتل الأمير عمر كان في رجب سنة ٥٢٦ وأن الذي كتب بخبر الكارثة الى عليّ بـن يوسف هو سليمان بن جعفر الحضرمي (الذيل والتكملة ٤ : ٦١) وذكر ابن القطان تلك الحادثة في أخبار سنة ٥٢٦ .

الموحدين الى كيك فهزموا عسكراً لعلي بن يوسف واخذوا اموالهم وسلاحهم وأخبيتهم (١) .

ثم نزل بهم عبد المؤمن بن علي الى اغمات (٢) فحصروها وقتلوا في يوم واحد نحو ثلاثة آلاف اكثرهم سودان فاتصلت الهزيمة بموضع افراك ؛ وفي اليوم الثاني اصبحوا على باب الشريعة فخرج اليهم علي بن يوسف من مراكش فهزموه حتى دخل باب المخزن .

وفي هذه السنة توفي المهدي، لما رجع عبد المؤمن من حركته وجده مريضاً فخرج الى الناس فوعدهم وكلمهم ثم رجع الى داره فتوفي ، وكتم اصحابه وفاته ، وكان عمر المهدي نحوا من خمسين سنة . هكذا ذكر ابن القطان رحمه الله .

وفي سنه خمس وعشرين وخمسمائة ورد كتاب علي بن يوسف على الامير ابي محمد عبد الله بن ابي بكر بولاية قرطبة،فلما استقر بها امر بالنظر في الميرة الى ارنيط (٣) وقد انتدبت النصرانية لهذا الحصن خيلا ورجلا واحدقت به لتمنع وصول الميرة اليه وقد نفذت الاموال عليه وطمعوا به لكونه [شجيّ في حلوقهم] وقذى في عينهم ، فاستمدّ الاميرُ عبدُ الله الاميرَ تاشفين من اغرناطة فأمده بنفسه واجتمع بها في سمت مرسية واليها ورئيسها يحيى بن علي ابن غانية وتسامعت الروم بذلك فأرسلت امدادها من البلاد النازحة والاقطار الشاسعة فاحدقت بالحصن ، وأمد الميرة ، فحال بين اتصال الروم ، وأمر الامير تاشفين يحيى بن علي بن غانية بأخذ مخاضة النهر على من بتلك الضفة من المدد ، فلما رأى الروم ذلك استمروا الى سفح الجبل فقل الطمع فيهم ، وأمر الامير تاشفين بضرب المحلة ، فلما حل بالمغرب صدر الناس الى الاخبية وترك

(١) انظر الخبر عن الغزوة إلى كيك في نظم الجمان : ١١٤ .
(٢) قارن بما أورده صاحب نظم الجمان : ١١٦ - ١١٧ .
(٣) في المطبوعة : ارنبة .